الفصل العاشر

وادي تثليث[١]

وصلنا إلى منزل عبدالوهاب في خميس مشيط بعد المغرب مباشرة من اليوم الرابع عشر من يونيو، وقضينا الصباح التالي نستكشف المناطق العليا من وادي بيشة، كما وصفت سابقاً. غادرنا خميس مشيط عصر ذلك اليوم، وقد استغرقت الرحلة حتى الآن أربعة أسابيع من جملة الوقت المخصص لرحلتي، وقد حدد لها برنامجي المبدئي مدة (٢٦) يوماً - على الأكثر-. سارت الأمور حتى الآن على ما يرام. أعيد تكوين فريق رفاق السفر وقد تحسن كثيراً بإدخال تغيرات معينة بالتشاور مع الأمير خالد في أبها. تم الاستغناء عن خدمات إبراهيم بن فرج ومساعديه النجديين، مع تقديم نفحات مناسبة اعترافاً بالخدمات التي قدموها. لقد خدموني بدرجة جيدة، غير أنهم لم يكونوا ذوي فائدة مباشرة لي، كما أنهم أنفسهم لم تكن لديهم الرغبة في الذهاب إلى أي مكان يبعدهم عن الحضارة. أعفينا -كذلك- سعيداً، مساعد سائق الشاحنة، وقد كنا قد دفعنا لدليلنا حمود من بيشة أجرته منذ فترة ورجع إلى بلده.

أصبح الآن محمد العسيري بدلاً عن إبراهيم رئيساً لمجموعتي. وهو رجل من أبناء علكم، وقد خدم عند تركي السديري مدة طويلة في أبها وفي الجوف

---

(١) يقع حوض وادي تثليث إلى الشمال من هضبة نجران ويتخذ شكل المستطيل فيحتل الجزء الشرقي من هضبة عسير، ومع أنه يتجه من الجنوب إلى الشمال، إلاّ أن اتجاهه هذا ينحرف عن اتجاه سلاسل الجبال، فيمتد ما بين تلك السلاسل في سراة قحطان في الجنوب الغربي وبين حوض عاليه وادي الدواسر. للمزيد انظر: عاتق بن غيث البلادي. **بين مكة وحضرموت**، ص ١٧٣ ــ ١٧٤؛ عمر بن غرامة العمروي. **منطقة تثليث وما حولها من ٦٥٠ ــ ١٤١٤هـ** (الرياض: دار الشبل للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ص ٣٣ وما بعدها. (ابن جريس).

وفي مناطق أخرى. لقد كان حقيقة، خادماً مستديماً لأسرة السديري ويبدو أنه رجل ذو شأن. كان دليلي -في الحقيقة- مكسباً عظيماً لي، واسمه فرج بن قرقة من أبناء قحطان، كان قد افتتح هو وأخوه بداح فعلياً طريق السيارات إلى نجران، وبقيامهما بهذا، فقد تمكن من استكشاف دقيق لكل البلاد التي تقع أمامنا لتحديد اختيار أحد الطرق البديلة. كان بالمناسبة، من أبناء هذه البلاد الجنوبية، إلى جانب أنه ذو ذكاء عظيم وجاذبية. لقد برهن حقيقة أنه رفيق جيد. صنع هذان الاثنان قواماً متماسكاً للفريق الجديد الذي تضمن بالطبع، المخلص سعد بن عثمان وسائقي، محمداً، إلى جانب عباس سائق الشاحنة الأصلي. جلب الأخير هذا مساعداً جديداً له يسمى -كسابقه- سعيداً. كما أصر الأمير أن يكون معي طباخ محترف من موظفي مطبخه الخاص، وهو رقيق زنجي محرر يدعى ابن جابر. كوَّنا بذلك، بما فيهم أنا، فريقاً من ثمانية أفراد يبدو في كل مظاهره أنه أكثر تجانساً من الفريق القديم.

قد يكون من المناسب أن نعيد باختصار المسافات التي غطتها حملتي حتى الآن قبل متابعة المزيد من السفر. سأوردها بالكيلومترات كما سجلها عداد سرعة السيارة بدقة كبيرة - آخذين آبار عشيرة كنقطة انطلاق وممر شعار الهدف النهائي. لقد غطينا إجمالي (٨٥٢,٤) كيلومتراً بين هذه النقاط، غير أن المسافة النهائية، باستثناء الرحلات المحلية، والتحويلات في سيارتي- لم أضع في الاعتبار مسافات إضافية غطيتها بواسطة عربات مُضيفيَّ في خميس مشيط (-٣٦,٨) كيلومتراً من خميس مشيط إلى الحمى والعكس- وأبها -رحلات داخلية- كانت الحصيلة (٧٩٧,٧) كيلومتراً، أو فعلياً ٥٠٠ ميل.

كانت المسافة النهائية الفعلية من عشيرة إلى تفرع نجران- خميس مشيط (٧٠٥,٢) كيلومترات، تفاصيلها كما يلي: من عشيرة إلى الخرمة (١٧٠,٦ كيلومتراً)، إلى رنية (١٤٧ كيلومتراً)، إلى الروشن (١٨٥,١ كيلومتراً)، إلى خيبر (١٥٠,٦ للوحدة) وإلى مفرق الطرق (٤٥,٩ كيلومتراً). كانت المسافة من هذه النقطة الأخيرة (٣٤,٥) كيلومتراً إلى خميس مشيط، (٣٠) كيلومتراً إلى أبها، (٢٨) كيلومتراً إلى شعار، إجمالي (٩٢,٥) كيلومتراً. عدنا على طريقنا من شعار إلى مفرق نجران، كانت المسافة النهائية ذهاباً وإياباً (١٨٥) كيلومتراً. كما أن المسافات من المفرق إلى نجران يجب أن تدخل في الحسبان من عند عشيرة – (١٠٩,٤) كيلومترات من مكة و(١٨٧) كيلومتراً من جدة- فإن المسافة النهائية ستكون (٧٠٥,٢) كيلومترات، أو (٨١٤,٦) كيلومتراً من مكة و(٨٩٢,٢) كيلومتراً من جدة. إذا أضفنا إلى الرقم الأخير مسافة (١٨٥) كيلومتراً من المفرق إلى شعار، فإن المسافة النهائية الإجمالية التي تم تغطيتها من جدة ستكون (١٠٧٧,٢) كيلومتراً، والتي ستزيد بسبب التحولات المحلية بمقدار (٩١,٥) كيلومتراً، سيكون الناتج النهائي (١١٦٨,٧) كيلومتراً غطيتها بنفسي منذ أن غادرت جدة في السادس عشر من مايو لأبدأ حملتي، أو ما يعادل (٧٣٠) ميلاً. كانت المسافة بين جدة وأبها (٩٥٦,٧) كيلومتراً، أو ما يعادل (٥٨٥,٥) ميلاً.

رجعنا إلى القرارة بعد مغادرتنا خميس مشيط، وأمام ناظرينا قرية ظور آل عجير الكبيرة، إلى البعيد ناحية الشرق على سفح تل في وسط سهل صخري يمتد تجاه سلسلة جبال القعم. عبرنا مجريين لشعيب ذهبان -غير ذلك الذي يقع بجوار قرية بالاسم نفسه- على بعد ميلين من نقطة انطلاقنا، الذي يجري إلى أسفل عبر الطريق، من الجنوب إلى الشمال، كرافدين للمجرى الأسفل لوادي الشرف. يتبع

أحد هذه المجاري بئراً له على بعد نصف الميل يسمى ذهبان، وكلها تنساب ناحية قرية تسمى آل غمر تقع أسفل آل مسلم في وادي بيشة. وهي القرية الأخيرة التابعة لقسم آل رشيد. وصلنا إلى مجمَّع الأمطار عند تقاطع الشرف - تندحة على بعد ستة أميال من العرق وبدأنا الهبوط عبر البلاد الصخرية، الجرانيتية المتموجة العارية التي تصب ناحية الأخير. أزعجت حركة سيرنا سرباً من طيور شاكور التي كان منها ما يقدر بحوالي (١٠) أو (١٢) طائراً صغيراً مع رفقة والديها. وعند وصولنا إلى مروج شعيب القرارة رأينا زوجاً من طيور الأوز الأبيض والأسود يطير عند الوادي الجاري. لم اتمكن للأسف من إطلاق النار نحوهما، غير أنني أثناء تجولاتي بين الصخور، تمكنت من إدخال زوج من طائر درسة الصخور. رأيت أيضاً على الصخور رسماً بدائياً ليدين بشريتين وشيئاً يبدو وكأنه صورة إنسان.

كنا نستقبل الأحداث في هدوء، وكان أن قررنا أن نعسكر، بعد غروب الشمس بقليل، في أرض مخصصة لغربلة الحبوب، طينية، تابعة لقصر طويل بقرية القرارة الصغيرة التابعة لآل الضب، كما تحصلت عند الغسق على طائر السبد من هنا، كما أحضر لي بيضتان ليمامة الصحراء من عش قائم على شجرة تين. تحصلت أيضاً على بعض الضفادع المحلية من الوادي، وسرعان ما ظهر البعوض مع قدوم الليل، غير أنه ليس بأسراب كبيرة، كما قد يخطر بالبال. لم أعاني بالمناسبة، من تكرار الحمى التي هجمت عليَّ ثلاث مرات في الحنجور وفي حجلا وفي أبها.

صحوت قبل شروق الشمس على أمل الحصول على طائر السبد عند الشفق أو حتى العثور على الأوز مرة أخرى في الوادي على مدى التصويب. لم يظهر الأول وكل ما شاهدته من الأوز هو ثلاث أو أربع منها وهي طائرة إلى البعيد.

رأيت منظراً لن أنساه ما حييت أثناء تجولاتي بين السلاسل الجرانيتية ذات الجلاميد المبعثرة المهدبة للوادي. جلست مجموعة من طيور الحجل، عند أفق السلسلة الجبلية، مظللة في مقابل الضوء النامي عند الأفق وكأنما كانت تترنم بنغم ما، وهذا ما لفت انتباهي، يقدر عددها بحوالي العشرين، وكان ظهورها تجاه المشاهد، وهي تنتظر بزوغ الفجر، كأنما هي صف لعبَّاد، في انتظار توقير أول شعاعات لقرص الشمس المشرقة. طاردتها، بأسف، فوق التل لأجل الحصول على عينة منها، واقتربت من مدى التصويب نحوها دون أن يضطرب احتفالهم الديني. كانوا في درجة من التقارب لبعضهم البعض لدرجة أن الرصاصة الواحدة قد أسقطت اثنتين منها، وطارت البقية تجاه الشمس الصاعدة، والتي كانت قد برزت فوق الأفق، حينما وصلت القمة لالتقاط طيوري كان كلاهما ذكراً. اكتملت حقيبتي بأبلق وقنبرة صحراء، غير أنني رأيت طيوراً عديدة حول الحقول والبساتين لمجموعة هذه القرى الجميلة منها -يمام أخضر، ويمام الصخور- وحمام- وهداهد- وبلابل- والأبلق العربي. وبعض "الاسكوتوسركا". كان محصول الدخن (ذرة) الصغير قد نما بوضوح في الحقول، على جانبي مجرى القرارة الرملي، يطغى عليه هنا وهناك أسوار شجر التين وأشجار النبق الكبيرة والعديد من الأثل الجيد النمو. لقد خُصصت بعض الحقول لزراعة البرسيم (برسيم أو جت) كما توجد بعض زراعة للخضراوات، البقول وغيرها[1]. كانت المنطقة فقيرة بوضوح غير أن لها جاذبية مؤكدة وأن آهليها ودودون. حتى النسوة، حيينني وسألنني عن نتائج إطلاق النار الذي سمعوه.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن الزراعة في منطقة عسير، انظر: أحمد محمد حيدر. **الجغرافيا الزراعية لمنطقة عسير** (أبها: النادي الأدبي، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ٣٧ وما بعدها. (ابن جريس).

يمر شعيب القرارة، قادماً من الجنوب -عبر المروج التي كنت قد ذكرت من قبل- خلال عنق ضيق لسلاسل صخرية ليصل لأرض زراعية وسكنية يجري إلى ما وراءها ليتصل مع شعيب تندحي الذي سلكناه إلى القرارة عند قدومنا لأول مرة لهذه البلاد. يسمى المجرى المشترك، الذي ينساب إلى بيشة، بشعيب تندحة. تسمى أعلى القرى الصغيرة لهذه المجموعة آل الضب وتشتمل على عدد من القصور المنعزلة منتشرة على جانبي المجرى، وقد عسكرنا بجوار أكبرها، وهو مقر سكن الزعيم. تقف قصور قليلة مبعثرة لآل الحماس إلى اليمين، بعيدة شيئاً ما عن المجرى، بينما إلى أسفل، عند التقاء القرارة مع تندحي، تقع قرية غيثان أو آل عجير ذات التل البارز (صلة) في الجهة الخلفية مع قمتيه الهرميتين. كانت سلسلة الصخور الجرانتية الواقعة ناحية شرق القرية، وتسمى هضبة الصاليت. يمتد طريق السيارات خلال القرية الصغيرة، إلى شعيب تندحي بين سلسلة العين المنخفضة وتل يسمى مجيبة. تقع قرية ضرحبه (أو العجير) التي رأينا تلّها بعد مغادرتنا خميس مشيط بقليل -وهو علامة أرضية بارزة. كما تشاهد الكتل الصخرية المنخفضة لحمام والعريض وهضبة الظلان وسوا والعرف، والتي تطوق المحافظة بشكل نصف دائري من جنوب الجنوب الغربي إلى الجنوب الشرقي. كما تظهر على بعد فوق ثانية هذه المجموعة (أي العريض)، الأرض الرأسية (مجالح) التابعة لسلسلة جبال أحد ويشمخ أحدها واسمه نيس فوق قرية العظيمة التي تستقر عند سفحه.

تقع قرية آل قتير في مجرى الصُّلة إلى ما وراء غيثان الذي يجري ناحية تندحة على مسافة ميل ونصف الميل، وآل حجاج على مسافة ميلين ونصف الميل، وكلاهما عبارة عن قرية صغيرة. توجد قرى المزارقة وآل مستنير وآل جَرْف أسفل القرية آل مستنير، غير أنها غير مرئية لنا من فوق قرية الصلة عند الاتصال

مع تندحة. تتبع قرية الصلة نفسها، وكل القرى الصغيرة فيما يليها مع أسفل الوادي، إلى كود (شهران) بينما تنتمي القرى الوارد ذكرها قبل الصلة أعلاه إلى أهل تندحة (أيضاً شهران).

كان كل ما استطعنا رؤيته من منظر لهذه القرى الصغيرة في شعيب تندحة من وراء السلسلة هو برج آل القنا على بعد ميلين ونصف الميل. لا توجد قرى في شعيب قرارة مع اتجاه أعلى الوادي لآل الضب، بينما تعرف البلاد الجرانيتية الصخرية الواقعة على جانبه الأيسر إلى ناحية مجمَّع الأمطار، الذي لاحظته في الطريق، محلياً باسم الحضرة. تعج هذه البلاد الصعبة بالأرانب البرية التي تحصلنا منها على عينة واحدة قبل مغادرتنا بقليل.

عبرنا مجرى شعيب السراة بعد خروجنا من شعيب تندحي عند مواصلة رحلتنا، وهو شعيب لتندحة وكما قال دليلنا فرج، فإنه ينبع من قرية سوق عبيدة عند سفح سلسلة جبال القعم المسطحة القمة، غير أن شبكة خطوط التصريف في هذه البلاد الصعبة ذات السلاسل الصخرية، تكون متشابكة جداً ويصعب فكَّها. لم تتغير، فهي نفسها تمتد إلى مجمع الأمطار وما يليه، والذي وصلناه بعد عبورنا الحنجور والذي يعلَّم -حقيقة- الفاصل بين نظام بيشة ونظام تثليث. وصلنا إلى مفرق الطريق وهو موقع معلَّم أيضاً بركام من حجارة.

لقد أكملنا المرحلة الأولى من حملتنا وشرعنا في الثانية وذلك بأخذنا طريق نجران، الذي يجري من هذه النقطة ناحية الشمال الشرقي تقريباً، تجاه قمة القرن البركانية المرتفعة. كان الارتفاع عند مفرق الطريق حوالي (٦,٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وكانت البلاد استمراراً لقفر صخري عارٍ والذي كنا نسير فوقه منذ

أن أعدنا عبـور مجرى الحنجور. ملنا تدريجيـاً إلى اتجاه شرقي مكوناً نصف دائرة حول صخور وسلاسل آل الغلفقة التي تقع على يميننا. وعبرنا مجرى الخليلة على بعد ميل ونصف الميل مـن المفرق، والذي يجري شمالاً ليـتصل بوادي شدا الذي يسمى شج أيضاً، وقـد ذكرته من قبل وقلت بأنه ينساب إلى خيبـر. وتوجد بركة ماء مستديمة تقريباً بين الصخور الجرانيتية في جانبه الأيسر على مسافة نصف ميل، في حوض طبيـعي، يطلق على مثل هذه البرك الصخـرية في هذه المناطق المجاورة اسم وقر مفرد وقرة[1]. يقع سهل عريض إلى مـا يلي الخليلة وهو مظلل بأشجار العوسج وينتهي ناحية الجنوب في أرض منخفضة الارتفاع تكوِّن رأس وادي شدا.

بدأت التلال الصـخرية والسلاسل الجبليـة من حولنا تتخذ لوناً داكناً (تـقريباً أسود) مقارنة بالبلاد الجرانيتية الحمراء التي خرجنا منها إلى سهل على امتداد مسيل إلى مضيق نجد الجـمع الذي ينحدر منه مصرف ضحل عبر سلسلة القـعمة السوداء إلى شـعـيب وطاط عند سـفحـه. تكون هذه الـسلسلة، التي تجـري من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي، مجـمّع أمطار الذي يفصل بين شدا وطاط، والأخير هذا عبـارة عن وادٍ عريض ضـحل ذي مجـرى سيل ضـيق بين جانبين مـرتفعين وعليهما كثافة من جنبات وشجيـرات شوكية. كما يبدو أنه يرتفع في أعلاه لمسافة الميل الواحد أو الميلين متجهاً إلى الجنوب من موقعنا، ليواصل امتداده ناحية شمال الشمال الشرقي، والذي تمكنا من مـتابعة مجراه وفي اتجاهه هذا إلى البعـيد ناحية شعيب الضـرس -حيث توجد قرية فـيه تسمى يعرى-، وكـذلك عن طريق واحة

(١) الوقره: هي النقرة في الصخـرة تُمسكُ الماء. وفي الحديث، التعلم في الصبا كالوقـرة في الحجر. للمزيد انظر: ابن منظور. **لسان العرب**. (بيروت: دار أحيـاء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) جـ٥، ص ٣٦٥ . فعل (وقر). (ابن جريس).

الصبيخة في وادي طريب ومن هذا الوادي إلى تثليث. يقف جدار من حجارة منخفضة من المضيق على الجانبين، على امتداد سنام لسلسلة القعمة غير أن مغزاه يبدو باهتاً إلاَّ إذا قصد منه أن يكون حدوداً مرئية بين قبائل شهران من خلفنا وقحطان أمامنا[١].

بدأنا في التقاط منظر جيد للخصائص الرئيسة للبلاد الواقعة أمامنا، ونأمل عن قريب أن نتحصل على مشاهد أكثر عمقاً ولذلك سوف أؤجل الوصف إلى ذلك الحين. عبرنا وطاط عند سفح السلسلة مسافة خمسة أميال، عابراً رافدين آخرين للضرس هما شعيب الطلاح وشعيب زعزع، وبينهما أرض من قمم جرانيتية ناعمة وعدد من برك المياه تسمى الوقران. تطلق على هذه الأرض المستوية ذات السهل الطيني المكسو بغزارة بالحشائش الطويلة اسم جميم. وصلنا عندما بلغنا إلى وسط هذه الأرض إلى مجرى شعيب القرن الشجري الرملي الجميل وقررنا أن نتوقف طويلاً هنا لتناول وجبة الغداء، والتي في أثناء إعدادها، كنت قد صعدت إلى قمة القرن، البركانية العظيمة أو قرن القعس كما يسمونها لتمييزها عن قرن مجعل وهي قمة بركانية مماثلة تقع إلى الغرب من شعيب الحنجور.

فصلت مئات قليلة من الياردات للسهل الحجري الشعيب عن القاعدة الفعلية لقمة البركان، الذي كانت منحدراته السفلى مكوّنة من بازلت صعب يغطي قشرة من جرانيت أحمر ويرتفع بميلان شديد إلى بناء فوقي عظيم من أنابيب بازلتية، معطية التأثير بشكل الأرغن العظيم المرفوع عالياً في وسط سهل أخضر عظيم،

(١) في هذه النواحي تتداخل بعض قرى شهران مع قحطان، حتى يصعب على الغريب عن هذه البلاد معرفة الأسماء والمواطن الصحيحة وإلى من تتبع له من القبائل الشهرانية أو القحطانية. (ابن جريس).

جرت خلاله الشرائط الخضـراء لستة من المجاري المصرفية كانت كلهـا تتجه ناحية الشـمال الـشرقي وهي: وطاط، والطـلاح، وزعزع، والقـرن، والغـول والخليلة القاع. -وهو الأبعـد ناحية الشرق وقـد سمي هكذا لتمـيزه عن الخليلة الذي ورد ذكره رافـداً لشدا-. تنبع كل هذه الشـعاب من قعم البـعيد إلـى الجنوب الشرقي وتنساب في نهاية الأمر إلى مجـرى الضرس، الذي يتحد مع وادي طريب إلى ما وراء تل ضداعين الذي يقع إلى شمال الشمال الشرقي من القرن. يبدو هذا السهل في بعض أجزائه كأنه مـرج حقيقي أو حقل هشيم ضخم، تهب عـليه رياح لطيفة تداعب الحشـائش الجيدة النمـو، وقد أصبـحت الآن ذات لون بني إشعـاراً بمقدم الصيف.

لا بد وأن تكون قمة القرن هذه قد أدت دورها محطة مـراقبة لأجيال عدة لا حصر لهـا لقحطان[١]، وتحت القمـة مباشرة، كـانت الأسطح المستوية لصـفوف الأعمـدة الأنبوبية البـازلتية قـد تزينت بأوسام القبـائل أو تخدشت بكتابات أكـثر طموحاً باللغة الثمودية[٢] لقد قمت بنسخ ما يقدر بستة من هذه الرسوم والنقوش -لقد رأيتها كلها، علماً بأنه قـد يكون هنالك الكثير منها-، ولم يشتمل أي نقش من هذه النقوش التي عثـرت عليها على أكثر من عشرة أحـرف، ربما كانت أسماء شخصيـة، أو نقوشاً جنائزية. كما وجدت على أحدهـا صورة ليد بشرية، وعلى أخرى رمزاً بدائياً لما يبدو وكأنه قد قصد به حيوان الوعل[٣].

---

(١) من يتجول في جنوبي البلاد السعودية فإنه يشاهد كـثرة أبراج المراقبة المبنية على رؤوس الجبال والهضاب والتي كانت تستخدم في العهود السابقة لأهداف حربية. (ابن جريس).

(٢) تمت دراسة النقـوش الثمودية التي ورد ذكرها مـراراً في هذه الصفحات بواسطة د. البـرت فاندن براندن Dr. Albert Vanden Branden من لوفان، وعلى وشك أن تنشر بواسطته (المؤلف).

(٣) توجد الكثير من الآثار والنقوش في السروات الممتدة من الطائف حتى نجران، ولا زالت تحتاج إلى تضافر جهود الآثاريين والمتخصصين في التاريخ القديم كي يدرسوها ويفكوا رموزها. (ابن جريس).

ترتفع القمة البركانية للقرن إلى (٣٠٠) قدم من قاعدتها، ويبدو أنها نتجت عن اقتحام الصخور البازلتية خلال أرضية جرانيتية وانزلاق الحمم الذائبة من الفتحة. تطل القمة على منظر مدهش للبلاد من كل اتجاه وإلى مسافة بعيدة. برزت ناحية الجنوب الغربي وناحية الغرب كل العلامات الأرضية المألوفة لبلاد خميس مشيط وأبها، بما في ذلك الامتداد العظيم لسلسلة الحجاز وسلسلة السراة التي يصعب إعداد تفاصيل أكثر لها. نستطيع رؤية القمم الجرانيتية لمنطقة خيبر التي تقع تجاه الشمال الغربي، بينما انحجب المنظر ناحية الجنوب الشرقي بواسطة القمة المسطحة ورؤوس الأراضي المرتفعة البارزة للقعمة. كانت الفجوة بين الأخير هذا وبين نقطة الشمال ذات أهمية كبرى بالنسبة لي عند هذه المرحلة من تجولاتي، حيث إنها هي البلاد التي سنكتشفها خلال الأيام التالية.

احتل وادي طريب كل الأرض الأمامية منحدراً من سلسلة القعمة البازلتية ماراً بالتل الهرمي لطويلات الجوف تجاه جنوب الجنوب الشرقي من موقعنا وتوجد على الجانب القريب منه وفي مجرى طريب نفسه قرية جوف بن فردان. ينحدر الوادي بعد ذلك إلى واحة طريب الرئيسة، التي لم نر منها أي شيء من هذا الموقع، إلاَّ بعضاً من التلال والسلاسل التي توجد على الجانب الأيمن. وسأتحدث عن هذه بتفاصيل أكثر عندما نصل إلى الواحة حيث سنقضي فيها الليلة.

ارتفعت كتلة عظيمة فيما وراء هذه ناحية شمال الشمال الشرقي، تسمى حَبْرُ ويمكن رؤيتها من فوق كتف مساد، أحد تلال طريب بالقرب من موقعنا. ووقفت ضريعان إلى يمين السابق وعلى الجانب الأيمن لطريب، معلِّمة اتحاد الضرس التي تجمع كل أودية الصحاري، مع مياه طريب. وشخصت سلسلة كتلة مسليخ بعيداً

على اليمين ومباشرة خلف الواحة، ومعها الأرض الرأسية الحمراء لخشم زيد. كما برزت عدة سمات بين هذه الأخيرة وطويلات الجوف وعلى فترات من التلال المتدحرجة المتراكمة - السلسلة الطويلة أم القصص ذات القمة المسطحة البارزة، والنقاط العديدة المنعزلة لسن الوعر وإعبال الدروع، وسلسلة واعل ذات البثرة الصغيرة في نقطة الوسط وسلسلة وعل. تقع خلف هذه السمات تلال وأودية وادي العرين ووادي تثليث نفسه من خلفه، إلى البعيد، كنت على وشك أن أتتبع الوادي الأخير، إلى منبعه في جبال السراة، ولا أحتاج أن أقول الكثير عنه الآن، إلاَّ أنه ينبع من بعيد في بلاد سنحان قحطان.

يعلم موقع الغرس سلسلة الحمراء إلى الشرق من موقعنا والغرس قرية صغيرة فيها نخيل كثير تقع في الأجزاء العليا لوادي العرين الذي ينساب إلى منطقة العرين نفسها من موقع ما أعلى من نقطة اتصالها مع تثليث، بالقرب من بعض الآبار التي تسمى البُغْبُغُ والتي تقع فوقها الحمضة داخل تثليث نفسه. قيل إن القرية الوحيدة أسفل البُغْبُغُ هي الكهيف بينما توجد جاش في وادي طريب على مسافة حوالي عشرة أميال بعد التقائها مع تثليث. سأذكر طريب والصبيخة وهما واحتان أخريان ضمن هذه المجموعة فيما بعد.

هبطنا من موقعنا الممتاز على القرن إلى المعسكر، حيث أعد لنا الطباخ الجديد ابن جابر، الذي تفوق على ذاته، بإعداده غداءً لذيذاً من رز مخلوط بالتوابل والبصل والزبيب. ورفض في قوة أن يجلس معنا ليشاركنا الطعام.

خرجنا سريعاً مرة أخرى، بعد أن استكشفت طيور شعيب القرن، الذي وجدت فيه أحد طيور الشادي "الأرفياني" بالإضافة إلى أنواع أخرى من الحمام،

واليمام، والبلابل، وطيور شائعة أخرى متضمنة عدداً من القنابر المرحة في حشائش البراري، التي ترتفع إلى القدمين. كانت هنالك الأغنام، في كل مكان وقد قابلنا بعض الرعاة وهم يستريحون تحت ظلال أشجار هذه المسايل كان معظمهم من شهران، حيث إننا لم ندخل بعد منطقة قحطان، كما ظل الجدار على سلسلة القعمة من خلفنا غامضاً بلا تفسير. ولدت إحدى النعاج حملاً قبل قليل بجانب الطريق، ويبدو أنها كانت مرتبكة بالتجربة، لأنها هجرت وليدها، حين مرورنا بالسيارة، ولاحقتنا بعد ذلك. يوجد إحساس بالربيع هنا، برغم أن شهر يونيو قد انقضى معظمه، في هذه الأراضي الرعوية المرتفعة، وقد لاحظت أن الحشائش كانت مبللة بالندى في الصباح الباكر في القرارة.

وجدنا السهل يتحلل تدريجياً من أرض حشائش إلى أرض صخرية ممتلئة بسلاسل جرانيتية منخفضة، ذات منخفضات رملية فيما بينها، ويكسوها غطاء نباتي قليل، بعد أن عبرنا مجرى الغول ومجرى الخليلة القاع.

وصلت أرض القاع إلى نهايتها بعد مسافة (١٦) ميلاً من القرن، ودخلنا إلى منطقة عبيدة قحطان. قادنا ممر بين سلسلتين صخريتين، وليس هو بالوادي، برغم أنه يعرف محلياً شريا، في لطف إلى أسفل، تجاه الجنوب الشرقي إلى سلسلة جبال أم القصص، التي اتسع الممر على امتدادها حتى وصلنا إلى سهل عريض رأينا عنده منازل ونخيل واحة طريب التي هي ليست بالبعيدة. يسمى هذا السهل حدبة سيلان ويبدو أنه نوع من الدلتا لممر شريا. كانت ليلتنا الأولى في طريب مثبطة للآمال وغير ملهمة، غير أن الوقت كاد أن يكون مغرباً وكاد النهار أن يتضائل. كنا مرهقين جداً بعد يوم طويل مليء بالنشاط ونحن نقترب من أحد قصور مشروفة، القرية الرئيسة الصغيرة في هذه الواحة، وجلسنا نرتب معسكرنا

على ما تبقى من ضوء النهار. كان منعشاً لنا أن نعود مرة أخرى إلى أحضان مزارع النخيل التي كنا قد رأيناها آخر مرة في خيبر قبل أكثر من أسبوعين.

تقع مشروفة على بعد (٢٢) ميلاً من تفرع الطريق وعلى ارتفاع (٦١٠٠) قدم فوق سطح البحر. هبطنا دون أن نحس بذلك إلى (٤٠٠) قدم عند تلك البقعة. يبدو أن الحدود الارتفاعية لأشجار النخيل في هذا الجزء من الجزيرة العربية تصل إلى حوالي (٦٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. تقع خيبر على ارتفاع (٥٧٠٠)، قدم وخميس مشيط على ارتفاع (٦٥٠٠) قدم. يقبل وادي طريب من قرية جوف ابن فردان، ولا توجد قرى أخرى في واديه حتى يصل إلى القصر المنعزل وحقول شائع بن ادريس على مسافة الميل الواحد أعلى مشروفة، التي تشتمل على (٨) أو (٩) قصور مبعثرة في أرض صعبة ذات مزارع نخيل وحقول عبر مجرى السيل المتعرج الذي يصل عرضه إلى (٥٠) ياردة. كانت هنالك محاصيل البرسيم في بعض الحقول، بينما نهض محصول الدخن إلى ارتفاع ست بوصات. كان هنالك العديد من شجيرات الرمان، في حالة متقدمة مقارنة بتلك التي في خميس مشيط، وكانت لا تزال مزهرة. كانوا يقيمون حواجز ترابية مفككة (مساطب) لتوجيه مسار الماء لأغراض الزراعة، خاصة حينما تأتي السيول من أعلى وتفيض خارج مجرى السيل. يزرع العنب أيضاً هنا، وقد رأيت شجرة معترشة جميلة فوق إحدى الآبار التي يتباين عمقها من ست قامات إلى (١٣) قامة ومبطنة بالحجارة إلى مستوى الماء، الذي يوجد في صخور جرانيتية تقع أسفل طمي ورمل الوادي[١]. كانت شجيرات الخروع متوافرة هنا، كما كان الأثل والنبق وغيرها من نباتات الواحات[٢].

---

(١) وللمزيد عن أوضاع الزراعة في منطقة عسير خلال القرون الماضية انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ**، ص ١٢٩ ــ ١٤٢، أحمد حيدر. **الجغرافيا الزراعية لمنطقة عسير**، ص ٥٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) وعن نباتات وأشجار منطقة عسير انظر: حسين أبو الفتح. **نباتات طبية من الجنوب الغربي للمملكة**، ص ٣٣ وما بعدها فريدة قدح. **الغطاء النباتي الطبيعي**، ص ٨٧ وما بعدها. (ابن جريس).

يسكن قصور مشروفة، بالتساوي، فخدان من قريش والجرابيع التابعين لعبيدة. كان الناس فقراء بشكل مدقع، وكان الأطفال، الذين انبعث عليهم زياراتنا، يلبسون أفقر الأسمال وكانوا بالفعل عراة، غير أنهم مرحين مؤدبين. لا يوجد لدى سكان القرية دجاج ولا بيض للبيع غير أن لديهم كميات قليلة من لبن الأبقار، والذي يطلبون في مقابله ثلاث زلطات للطاسة الواحدة (قل باين واحد). رفض أحد الصبية، وقد أحضر إلينا لبناً، قبول هذه العملات النحيلة الصغيرة، وعرض علينا أن نقايض السعر، بالبُن، والذي يعتبر رفاهية عظيمة في هذه الأجزاء.

كانت الخُمر النسائية أكثر ما تكون حقاً منها تقليداً أكثر ما تحترم حين تخرق وليس حينما يلتزم بها. كانت وجوههن واضحة تماماً من خلفها، وقد جاءني فرج، ومعه، فتاة عذراء، جميلة جداً، ممتلئة القوام، في سن الزواج واقترح عليَّ أن أقوم بتصويرها، وقد فعلت بالطبع. ذهبنا ثلاثتنا لزيارة لوالدها في أحد القصور القريبة، والذي أذن لي بالصعود إلى سطحه لرؤية المنظر العام للوسط. كانت الأم واسمها شارة ذات جاذبية، وكانت حياتها بلا شك، صعبة في رعاية وتربية ستة أطفال. كانت شرف وزهرة هما البنتان الكبريان، -وقد كانت شرف هي التي زارتني-، وقد صحبتاني عبر الطابقين المظلمين داخل منزلهما المتواضع، إلى أعلى، وكذلك فعل مفلح شقيقهما الصغير، ربما عمره (١٤) عاماً. تمنع التقاليد المحلية زواج شقيقتيه الكُبْرَيَيْن حتى يتأمن له هو العثور على عروس خاصة به[١]، غير أنهما مازالتا صغيرتين مما يكفي لانتظارهما سنة أو سنتين قبل أن تكون لهما مساكنهما الخاصة.

(١) هذه العادة ربما كانت موجودة عند بعض السكان وبخاصة في البوادي والأرياف، أما اليوم فأصبحت شبه نادرة. (ابن جريس).

يجري الوادي في اتجاه الشمال تقريباً عبر الواحة ومن ورائها، حيث توجد قرية أخرى أسفل مشروفة مكوَّنة من قريتي الفرعة الصغيرتين وحزام نخيل كثيف على بعد ميلين، عبر الوادي. كان سكانها من فخذ الجرابيع. تقع أسفل منها مباشرة قرية الحدبة الصغيرة، تابعة لقسم آخر من عبيدة آل سليمان. تقوم أشجار نخيل وقصور عرفة -أيضاً تسمى ابن فهيد- على الجانب الأيمن للوادي، مقابل الفرعة والحدبة، ويتقاسمهما أهالي كل من قريش وآل سدر -وهو قسم آخر لعبيدة-، كانت آخر قرى واحة طريب، -وهي تقع بعيدة من جسم الواحة الرئيس- هي المضة التابعة آل معمر، إلى ما وراء الموقع الذي تدخل منه سلسلة جبال زيد إلى حافة الوادي في أرض رأسية منتصبة. يقال إن وادي طريب خالٍ من القرى ومن أشجار النخيل وحتى من الآبار، ذلك من عند المضَّة، إلى أسفل، إلى الصبيخة وإلى جاش حوالي (١٥) ميلاً من ورائها. تحمل قريتا فرعة الأسمين الأحمى والحرف بينما تُعرف مجموعة منازل أخرى منفصلة على الجانب الأيسر باسم الجربوع وهو فرع من جرابيع تحت قسم الشيخ ابن عادي. يوجد أسفل هذه مباشرة، وعلى الجانب الأيسر، قصور قليلة تسمى الجمعان.

كانت هذه خلاصة وصف واحة طريب، التي هي الآن محطة هامة على طريق نجران، كما كانت في الدهور القديمة، على درب الفيل التاريخي، والذي -كما أخبرت- يأتي من عند ظهران -التي تقع بعيداً ناحية الجنوب- عبر بلاد قحطان من أعلى القعمة إلى تل العار على الجانب الأيمن لوادي طريب، حيث يواصل انطلاقه بين سلاسل وعل وعال، ويبعد الأخير ميل ونصف الميل عن مشرفة، ليعبر سفح سيلان على الشاطئ الأيسر لطريب ماراً بهضبة سن إلى براري

قعة العظيمة، والتي يخترقها وهو في طريقه إلى التلال الواقعة عند خيبر ومن ورائها. يسمى السهل بالمناسبة، على الجانب الأيمن لطريب، والذي يخترقه هذا الطريق القديم الذي ينتهي أعلى مشرفة، حيث تحف بالوادي مجموعة من سلاسل، جبال الحرجة[1].

كانت تربة الواحة فقيرة، ومعظمها من رمل خفيف، وكانت أشجار النخيل، برغم كثافتها في بعض المزارع -أحسنها كان نخيل الفرعة- إلاَّ أن ثمرها معظمه من النوع الردئ، ويسمى الدقل. كان البعوض منتشراً أثناء الليل، غير أنه ليس بأعداد كبيرة، ولا شيء جديد يذكر حول الطيور في هذه الواحة إذ أنها عصافير، وآكلات نحل، وبلابل، وهداهد، وقنابر فنشية أو متوجة، ويمام، وحمام، إلخ، عدا ذعرة صفراء تسمى محلياً بسبس وكان أكثرها شيوعاً طائر يقال له مقوقس، وهناك واحدة من هذه الطيور لم تستطع مرافقة زميلاتها شمالاً في هجرة الربيع بسبب أنها كانت قد فقدت إحدى ساقيها، ربما في شرك صيد.

كنا نعالج الأمور بهدوء، صباح السابع عشر من يونيو، وواصلنا رحلتنا عند الساعة التاسعة صباحاً فوق سطح سهل سيلان على الجانب الأيسر للوادي. وتقع الواحة على يميننا. عبرنا، بعد ثلاثة أميال من نقطة البداية، بطن مصرف شريا الرملي حيث يتصل مع طريب بالقرب من الحدبة مارين الآن في ممر صخري يسمى مجراد عليه شجيرات صحراوية قليلة.

(١) الحرجة:ـ بلدة تقع إلى الجنوب من سراة عبيدة وهي موطن شيخ مشائخ قحطان ووادعة المعروف بـ (ابن دليم) (ابن جريس).

عبـرنا شعيـباً بالاسم نفسـه على مسافـة أربعة أميـال وهو يصب في طريب بالقرب من تلال ضريـعان وسلوخ التي تعلَّم الحدود بين شهران -تـقع بعيداً على الجانب الغربي-وقحطان. كانت البلاد، فيما يلي ذلك، ممزقة بالعديد من المجاري الصعبة -مثل شعيب العرضه- النازل من ضريعان حينما اقتربنا من الأرض الرأسية لزيدي، حيث عبـرنا طريب إلى جانبه الأيمن، وقد غطينا الآن مسـافة (١١) ميلاً من عند مـشرفـة وتركنا الواحـة خلفنا إلى البعـيـد. رأينا عند فم مجـراد بعض علامـات الحياة الحـضرية، غيـر أن قصور بئـر ابن عويرة كانت قـد هجرت ومن حولهمـا مزارع نخيل قليلة ميتـة. تباين اتجاه طريقنا بعد ذلك، من جهـة الشمال الغربي إلى الشمال وعـلى امتداد الوادي. ولكنه يتجه بعد نقطة عـبورنا إلى ناحية الشمال الشرقي، تاركاً المجـرى مستمراً ناحية الشمـال، قبل أن يدور شرقاً موازياً للطريق، على مسافة، فيما يبدو وكأنه في بلاد صـعبة جداً. شمخت بعيداً ناحية الشمـال الشرقي كتلة صخـور سنبلة مطلة على وادي تثليث على الجانب البـعيد، بينما وقف حبر بعيداً تجاه شمال الشـمال الشرقي، كما تشاهد إلى البعيد، سلسلة طبب العالية، من عند فجوة بين هذين الموقعين.

دخلنا شعيب أصـدع الذي يصرف السفوح الشرقيـة لسلسلة جبال زيدي إلى وادي طريب، وانتـقلنا سريعـاً فوق سهل أم سليـم الذي ينحدر في هدوء ناحـية الشمال إلى الجانب الأيمن لطريب حينما يسـتدير حول منحناه الشرقي. توقفنا بعد ستـة أميال من التقـاطع لنطل على منظر البلاد من قمـة جرانيتيـة منخفضة تبـعد حوالي خمـسة أميال إلى الجنوب من نخـيل المضَّة، التي يمكن رؤيتهـا من مجرى طريب من أمام تـل أسود معلِّمـاً الطرف الشرقي لسلسلة جـبال حبـر، التي يمكن رؤية كتلة البقيع من ورائها.

وقفت القمم الجرانيتية التي تسمى ظور الشعره وظور الكعبة على الجانبين القريبين لحبر ناحية الشمال الغربي، وقيل إن الأخيرة هذه تحتوي على مياه في أحواض طبيعية، وبجانبها بئر درعة. تجري سلسلة قنا العالية فيما يلي الطرف الأيمن لحبر، على مسافة، وباستمرار غربي لسلسلة جبال طريب، بينما إلى يمين سنبلة، أمكننا رؤية رفيقها الصغير سنيبلة معلِّمة موقع واحة الحمضة، على وجه التقريب، داخل وادي تثليث. تشير قمة الحمراء تسمى طبب الحمراء إلى اتجاه جاش، والتي تقع فيما يلي سلسلة طبب الرئيسة، التي يقال إن وادي طريب يجري بينها وبين قنّا، إلى أن يتصل مع تثليث.

انسد الأفق أمامنا –من عند سنيبلة، وإلى يميننا– بسلسلة الجبال السود والتي ينحدر منها وادي العرين من جهة الجنوب إلى الشمال، ماراً بقرية الغرس الصغيرة –أيضاً تسمى هجرة زهير– التي توجد فيها حقول الذرة الصفراء، وليس بها نخيل. يجري مجرى شعيب رحبة في طريقه إلى واحة العرين ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا، على الجانب القريب للجبال السود، إلى الشمال، في طريقه إلى شعيب رمرم، أحد روافد وادي العرين. وجهنا طريقنا ناحية قمة جرانيتية رهيبة وعالية، تطل على منخفض رمرم، عبر مساحة من أرض صعبة جداً ومتموجة، من صخور وسلاسل تسمى حمات السوادة، منحدرة تجاه شعيب رحبة وهي تبعد (١٩) ميلاً عن تقاطع طريب و(٣٠) ميلاً من مشرفة. وقد صلنا إلى هذه النقطة، في وقت مبكر من العصر، وقررنا أن نعسكر عند سفح التل بجوار شجرة سرحة باسقة، لقضاء الليلة، لأجل الاستعداد للحملة إلى الصبيخة.

بدأنا سريعاً بعد تناول وجبة الغداء على عجل، متجهين ناحية الشمال الغربي فوق أرض صعبة ليس عليها أيّ ممرات واضحة، علماً بأن فرج يعرف الطريق

جيداً، ومن حين لآخر، كنا نمر بدروب سيارات نصف ممحية كانت قد زارت صبيخة قبلنا. أظهر القفر الصخري بعض أشجار الطلح الطويلة، هنا وهناك، وشكلها على هيئة المظلة، ولاحظنا، بعد بداية المسيرة بقليل، أن وادي طريب يميل تدريجياً ناحية طريقنا. سرنا بعد ذلك بجوار جانب الوادي الأيمن، لا نبعد عنه إلاَّ لنلف حول صخور وسلاسل وهضاب تكون في طريقنا.

دخلنا، وتتبعنا مصرفاً ضحلاً، معشباً، يسمى شعيب فدعر، ينساب ناحية الشمال، وذلك بعد أن سرنا ثمانية أميال، وسرعان ما ينبسط هذا الشعيب إلى وادٍ ضخم من حصى بازلتي، كان السير من فوقه مريحاً مع مساحات من رمل متين من حين لآخر. كان عرضه ميلاً واحداً تقريباً وكان طريب قريباً منا وعلى يسارنا، وكانت سلسلة جبل طبب بعيدة وعلى يميننا. بدأت أشجار نخيل الصبيخة تظهر أمامنا، بعد مسيرة ثلاثة أميال، مظللة تحت كتلة سلسلة جبال قنا التي ينساب بينها وبين طبب وادي طريب بعيداً إلى السهل.

وصلنا وعبرنا الجانب الأيسر طريب، وهو متدحرج فوق سهل رملي منحدر في لطف ويعترضه بعد مسافة قليلة، خط صرف نجد الغتات من عند تلال وضبان.

كان أول المناطق المأهولة التي مررنا بها في الصبيخة، على مسافة (١٦) ميلاً من معسكرنا، هو قرية القوز الصغيرة ذات مزرعة نخيل صغيرة على الجانب الأيسر لوادي طريب. كانت قرية صغيرة بائسة، تحتوي على حوالي (١٢) عشة بسيطة مبنية من اللبن، وأخرى قليلة العدد مبنية من الوتل وبعض خيام للبدو، غير أن هذه القرية مثيرة للانتباه بكونها واحدة من المنشآت الحديثة، مثلها مثل

غيرها من هجر الإخوان العديدة التي تم تأسيسها خلال الربع الأول من هذا القرن في طول البلاد وعرضها تحت رعاية ابن سعود.

كان لهذه القرية الصغيرة شرف كونها موطن مطلق بن شلفوت الرئيس المعترف به على جنوب قحطان. كان نظيره في هذا الوقت في الشمال، هو المحارب القديم، الرهيب، فيصل بن حشر، الذي توفي بعد عام أو عامين بعد ذلك، ليخلفه ابنه خالد وهو شاب لطيف، على وجهه علامات عميقة للجدري.

كانت مباني الرئاسة لهذه المناطق الشمالية لقحطان هي هجرة للإخوان وتسمى الضبعة وتقع في إقليم الخرج. كان مطلق، لسوء حظي، غائباً في الصحراء ولذا لم نتوقف للقيام بأي اتصالات في غيابه مع مواطنيه.

هبطنا بعد هذه القرية مباشرة، إلى بطن الوادي، الذي لم تواجهنا فيه أي مشكلة، لنصل إلى حافة مزارع نخيل الصبيخة نفسها، وتبعد حوالي (١٧) ميلاً من موقع معسكرنا عند وقر فجعة.

كنا هنا على ارتفاع (٤٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، مقارنة مع (٦١٠٠) قدم في مشروفة. هبط وادي طريب، كما يبدو، إلى (١٤٠٠) قدم أثناء تقدمه، أي بمقدار (٥٠) ميلاً من هاتين النقطتين.

تبعث حالة الصبيخة، نفسها على الأسف مما دفعنا إلى قيادة سياراتنا إلى بقعة أفضل، على تل منخفض، كاشفة لنا أطلال قصور ثلاثة قائمة على سفحها في أعلى الوادي. وقفت أربعة قصور أخرى، على بعد (٣٠٠) ياردة إلى الشمال الغربي من هذه المجموعة، وكانت أيضاً مدمرة، ويوجد كذلك قصران آخران يحتلان مساحة كبيرة (حوالي ٢٠ أكرا) من الأرض الطموية ترتفع إلى (٢٠) قدماً، بين طرف حزام النخيل والمضيق الذي يعبره طريب من خلال الجبال.

كان هنالك قصر منعزل آخر، يشاهد في مسيل ينحدر إلى الجانب الأيمن لطريب عند حافة الواحة. كما كان هنالك حضور قليل من الناس، وإلاَّ فإن المكان يعد مهجوراً تماماً. حقيقة فباستثناء القصر الأخير الذي يسكنه عشرة أشخاص، فإن المكان يعد مهجوراً بالفعل. وظهر تعليل لذلك سريعاً.

كانت حمى الواحة وبائية هنا، ويهرب العرب منها كما يهربون من أيّ وباء، هذا هو السبب لماذا اختيرت هجرة الإخوان في مكان بعيد عن منطقة مزارع النخيل الرئيسة، علماً بأن البعوض -أو أيما كان المسبب للوباء- قد وصلهم بلا شك حتى إلى هناك، لذا فهم يذهبون إلى الصحراء في موسم السيول ليعودوا -مثلهم مثل بقية السكان- فقط لحصاد التمر في يوليو وأغسطس. ترتفع أشجار النخيل في مساحة معتبرة من أرض ملحية (سبخة) تبدو فيها كأنها مريضة المظهر، أما في وسط بطن الوادي الواسع فتبدو أشجار النخيل بصحة جيدة، علماً بأن مزارع النخيل في معظم أجزاء الواحة، غير كثيفة. كان التمر، على أي حال، من نوعية جيدة، من صنف برني، وغير متعب للسكان، لأنه لا يتطلب الري. يكوِّن الوادي صاداً للمياه، لأنه مقيد بممر ضيق تعبره مياه فيضانه عبر حاجز جبال قنا - طبب، وتربته مشبعة بالمياه الراكدة المالحة، وهي غير صالحة لشرب الآدميين، أما مياه الآبار وهي عند عمق خمسة أو عشرة أقدام، فهي تستخدم لسقي الأبقار وري بعض الحبوب التي يقومون بزراعتها في مساحات صغيرة فوق أرض أقل ملوحة.

كان الوادي منقطاً بكثافة بجنبات نبات الشار وقد نمت إلى حجم الأشجار الكبيرة وقد كانوا يستخلصون منه الملح الصخري، أو يستخدمونه لعمل فتيل

إشعال البندقية أو فتيل البندقية. توجد كذلك كميات كبيرة من أشجار الأراك والطرفاء والأثل ومساحات واسعة من القصب التي كانت نابتة في مياه راكدة آنذاك. السلاسل الجبلية لقنا وطبب شبه دائرة مهيبة حول هذا المنظر الجميل للأقفار، وبينما ارتفعت على بعد نصف ميل تقريباً ناحية الشمال من موقعنا، فيما وراء منطقة الطمي، هضبة صغيرة معلَّمة مدخل المضيق الضيق المسمى المضيق، وهو شق عميق يمر من خلاله الوادي في طريقه إلى الخارج باتجاه الشمال الشرقي تقريباً. يبدو أن قرية جاش تقع في نقطة ما في هذا الوادي.

كانت أشجار الشار في قمة أزهارها، وهو نبات كريه الرائحة، ذو منظر مثير للاشمئزاز وأوراقه كبيرة كأذن الفيل وثمرته ثقيلة خضراء وسيقانيه ذات سائل لبني تهواه طيور الشمس كما كانت الطيور آكلات النحل وافرة في مزارع النخيل وكان يمام النخيل أيضاً في كثرة. كما كان الغراب مروحي الذيل في أعداد كبيرة.. أثارت حركتنا ونحن في طريقنا إلى نقطة الملاحظة مجموعة من طيور «شاكور».

تركنا الصبيخة غير آسفين بعد أن قضينا في استكشافها أقل من الساعة الواحدة، وسلكنا طريقاً مختلفاً بعض الشيء إلى أعلى الوادي حيث تقع القوز ومن ثم عدنا إلى طريقنا السابق الذي أوصلنا إلى هنا. كانت الشمس على وشك الغروب حينما التحقنا برفاقنا في المعسكر، لنجد في انتظارنا عشاءً جيداً من لحم الضأن والرز. كانت هنالك مجموعة من رعاة آل سليمان (عبيدة) في الجوار حين وصلنا، وهم يسقون حيواناتهم من عند أحواض جرانيت وقر فجعة ووقر مبارك وهما في مسيل شعيب حمجة الصغير الذي يجري إلى أسفل ماراً بمعسكرنا من عند شق تكوَّن باتصال قمة رمرم الجرانيتة –تسمى دثيث حقيقة– وسلسلة جرانيتية

سفلى تحمله من حولنا إلى خلف معسكرنا الجيد الوقاية. ينساب حمجة عبر طريق السيارات، إلى داخل منخفض كثيف الشجيرات يسمى سر الفلج يجري تجاه الشمال الشرقي، ويتحول سريعاً إلى مجرى وادي نظامي، أثناء سيره إلى أسفل ليتصل مع وادي العرين.

كذلك يدخل مصرف رمرم إلى هذا المنخفض نفسه في مكان ما بالقرب من هذا الموقع، قادماً من الجنوب، بينما تابع طريقنا سر الفلج الذي بالكاد يمكن الإحساس به كمنخفض أول الأمر، ووصلنا إلى مجمّع الأمطار سريعاً بعد أن توقفنا لتسجيل بعض الملاحظات عند واحدة أو اثنتين من القمم الجرانيتية التي تسمى قراتين. لا يبدو أن شعيب رحبة يتصل من هذه النقطة مع رمرم، ولكنه ينساب مباشرة إلى وادي العرين خلف قمة دثيث.

قدم لنا الرعاة، بدافع حسِّهم الباطني بإجراء عمل تجاري مع الزوار، خروفاً للعشاء والذي ساعدنا عدد منهم بإخلاص، في التخلص منه، مما فيهم ذلك الشاب الجميل والذكي الذي يسمى خلفاً وقد أمنت خدماته لي كدليل محلي إلى جانب فرج بن قرقة. يعرف هذا الأخير بلاده بدرجة جيدة بالتأكيد، غير أنني بدأت أجده ضعيفاً بعض الشيء وغامضاً فيما يخص تفاصيل الجغرافيا المحلية. وعلى أي حال، قد كنت دائماً سعيداً بكل المساعدة التي أستطيع الحصول عليها من الأهالي الذين لهم معرفة لصيقة بالمناظر المحلية. كانت الليلة ذات سحب، وحالفني النجاح جزئياً في ملاحظة النجوم، وبعدها انتبهت لدهشتي، إلى كثرة البعوض. كان موقع توالده البركتين الصخريتين اللتين ذكرتهما من قبل، إحداهما حوض طبيعي مهيب ذو عمق معتبر ومغطى من أعلى بجرانيت بارز.

صعدت قمة دثيث العظيمة، الملساء، المستديرة ويرافقني، خلف فقط، وكان ارتفاعها حوالي (٣٠٠) قدم، وذلك لأجل مسح المنظر. يصعد ممر من عند قاعدتها عند المسيل إلى القمة، وجداره مدرَّج على الجانبين، وتالف بعض الشيء في بعض الأجزاء، غير أنه من الممكن متابعته معظم الطريق - خطر بذهني، بالطبع، أنه طريق مراسيم واحتفالات قديمه يقود إلى «مكان عالٍ»[1]. ولا أظن أنه، حسب رأيي، يصلح لخدمة أي غرض آخر حديث، وأكد خلف حدسي هذا بإسناده هذه الظاهرة المدهشة إلى بني هلال.

لم أستطع اكتشاف أي رسوم أو نقوش حوله، وكذلك لم يعلم خلف بوجود أي منها في الجوار. غير أنه قد أمكننا رؤية تلال واحة طريب ناحية الجنوب وهي: عر، ومطوي، وغتيت، وزيدي، وأم القصص، وضريعان، والصلوخ، وملته وهذه تتصل مع سابقتها ناحية اليمين. انتشرت سلسلة جبال جبر من ناحية الجنوب الغربي إلى الغرب، خلف وادي طريب، ويقع بقيع ناحية اليمين أمام ظور الكعبة وسلسلة جبال حسسة، عند بقعة تسمى منعا والقمة المخروطية ظور سليم التي تقع خلف البقيع. وقف عتم مويتيه إلى يمين ظور سليم، وهو قمة حادة أخرى. تقع الصبيخة تجاه الشمال الغربي إلى الغرب هي وتلالها المعقدة مع وجود فجوة لسلاسل جبلية غير ذات أهمية تفصلهما عن كل من سنبلة وسنيبلة إلى الشمال الشرقي من موقعنا. تواصلت سلسلة سمبك ناحية الشرق، إلى البعيد، لتلتقي مع سلسلة أخرى تسمى الهضبة ثم إلى سلسلة الجبال السود الرئيسة والتي يجري على الجانب القريب منها وادي العرين، بينما تقع وراءها تثليث نفسها. لم

(١) (High Place) المكان العالي هو مصطلح أثري يطلق على أماكن العبادة التي أقامها سكان الجزيرة القدماء فوق قمم الجبال لممارسة بعض الشعائر الدينية وخاصة تقديم القرابين. (ابن جريس).

أستطع رؤية واحة العرين ولا الغرس من فوقها، ولكنهما يقعان ناحية الجنوب من دثيث كما يقـول خلف. أستطيع أن أرى بعيداً، خلال الفـجوة بين سنبلة وسنيبلة مجموعة من تلال وسلاسل قال خلف أنها تسمى جبل الكلاب.

هكذا كـان المنظر المحـيط. لمحت فتـاة تقـود قطيـعاً من الماعـز نحـونا أثناء استـمتاعي برؤية هذا المشـهد وأشار خلف إلى أن جرعـة من لبن من هذا القطيع ستكون منعشة. وافقته على رأيه هذا، وحينها، رفع صوته منادياً: يا راعية الغنم. أقبلت الفـتاة نحونا وتوقفت على مـسافة لتحلب لنا واحـدة من معزها في قـحفة خشـبية، ثم أحضـرتها إلينا بابتسـامة واثقة، كـانت فتاة جـميلة ولكن في أثواب مهلهلة كشفت عن تقـاطيع جسمها الشاب الجيد التكوين. احـتسينا اللبن وتحادثنا مع الفتـاة، التي كانت مهتـمة بشبكة صيـد الفراشات التي أحملهـا بينما كنت أنا أتطلع إلى معرفـة المزيد عنها هي، وناولتها ريالاً مقـابل اللبن. قال لي خلف إنها شقيقته ولم تتزوج بعد. ضحكت الفتاة كأنها مؤكدة قوله، أو ربما مستغربة إن كان صديق شقيقها طالباً يدها.

رأيت عند ذلك أن الوقت قـد حان لنتحـرك تجاه ثقوب الميـاه التي كنت أود رؤيتهـا قبل مواصلـة الرحلة. اعتذر لي خلف، الذي كـان سيرافـقني في المرحلة التالية، بحجة أن لديه تعليمات خاصة يود نقلها إلى شقيقته، ومضيت وحدي إلى أسفل الطريـق. لم يعد خلف حين وصلت إلى المعـسكر غير أن والـده كان هناك يصفي حسـابات خاصة بعشـائنا، مع محمد العـسيري، كان والده رجـلاً مرحاً، مسناً، ويبدو أنه معجب بنفسه. سألني مـاذا فعلت بابنه؟ فأجبته بأنني تركته هناك مع شقيقته وقطيع ماعزها. فقال لي في ضحكة خافتة: إنها ليست شقيقته، وكيف

يقول: إنها شقيقتـه الآن لماذا؟ إنها زوجته! بدا لي ذلك كأنه رجع الصدى من أيام إبراهيم!.

غضب خلف حين عـودته من مداعبـاته، غير أنـه بدا سعيـداً. وتحركنا كلنا لمواصلة المسـيـرة. تبع طريقنا الجـانب الأيمن لـسر الفـلج من عند ممر ضـيق من السلاسل الصخرية. بعد أن عبرنا شعيب مـويتيه في موقع التقائه مع السر، عبرنا الأخير لنجـد أنفسنا في طريق صعب جداً في أرض رملية مـغطاة بغطاء نباتي من أراك وثمام. وأخبـرني خلف بوجود أحواض سفوح جـبلية، ناحية اليـسار قليلاً هي: وقر بن عيسى، في السلسلة الجرانيتية لبني غراب التي تحيط بالجانب الشمالي للوادي، والتي من عندها يجري مسيل صغير إلى السر.

أصبح الأمـر الآن هو تحسس طريقنا بأحـسن ما نستطيع، ذلك لأن السـيول الشتوية قـد حطمت الطريق إلى درجة بعيدة. وقد فـقدنا في إحدى المرات طريقنا تماماً، وكان علينا أن نعود إلى الوراء قليلاً، لنجد ممراً يـقودنا إليه، غير أن عبورنا وإعادة العبـور للمجرى على فتـرات متكررة أوصلنا إلى الثقوب المائيـة لملحة التي تبعد حوالي عـشرة أميال من نقطة البداية وعلى ارتفـاع يقل (٢٨٠) قدماً، حيث وجدنا بعض الرعاة يسقون قطعانهم، تبادلنا معهم التحيات قبل أن نستمر للدخول في وادي العـرين -كنـا عند هذه النقطـة على ارتفاع (٤٨٠٠) قـدم فـوق سـطح البحر-. كان الوادي هنا ضـيقاً، مكوناً نوعاً ما من المضيق بين سـلاسل مرتفعة، وهذا سبب تسميته المـضيق. كان بطن الوادي الرملي مملوءاً بالأراك والطرفاء وكان بينها بعض أشـجار النخيل الشـاذة النمو ربما لأنها نمـت من النواة التي جاءت من الواحة، من مسافة بعيـدة إلى أعلى. يصل وادي العرين إلى هذه النقطة من جهة

الجنوب الشرقي ويستمر في اتجاه الشمـال الغربي مسافة ميل ونصف الميل ومن ثم ينحني انحناء حاداً إلى اليمين على امتداد الجانب الجنوبي المرتفع لوادي طبب على بعد ميلين ونصف الميل من مـوقعنا. تباطأنا قليلاً هنا بحثـاً عن الطيور، ولم نجد شيئاً مثـيراً للاهتمام، ما شاهدناه كان نكتارينيا في أعـداد كبيرة، وبلابل، ويماماً، وبعض أبي الحناء الأسود. كانت منطقة وقر فجـع بالمناسـبة، كثيرة الطيور، ومن بين أشيـاء أخرى فـقد أدخلت إلى الحقـيبـة زوجاً من طير الدغـناش وواحداً من ودرسة الصخور.

لا يتبع الطريق هنا مجـرى العرين ولكنه يضرب مائلاً عبـره ليدخل إلى رافد ضـيق متـعرج يسـمى صدع المضـيق يقع في وسط هضـبات وسـلاسل صخـرية منخفضة، وصلنا إلى قمتها خلال أقل من مسافة ميل واحدٍ، لنهبط بعده عبر بلاد مشابهة في مـجرى أعرض هو مجرى قرا الذي يقود مبـاشرة إلى الأمام إلى كتلة سنبلة المرتفعة.

كان طريق الصعود القـصير على صدع هو الأكثر صخوراً، الأكـثر صعوبة، والأكثر مـدعاة للسخط مقـارناً بكل الطرق التي واجهناها حتى الآن. كان صـعباً بدرجة مخيـفة على السيارات، غير أنها كلهـا وصلت بدون حوادث. خرجنا من قرا بعد ثلاثـة أميال على طريق الهبوط، سـالكين سهلاً صخـرياً ينحدر في لطف إلى سفح سنبلة، التي يدور حولها طريق السيارات ليمر بينها وبين رفيقتها سنيبلة.

رغـبت في أن أتسلق سنبلة، ولذا فـقد تركنا السـيـارات تواصل السيـر مع توجيهات باختيار موقع مناسب لقـضاء الليلة، بعد الخروج من الفجوة إلى السهل الذي يليها.

سرنا مسافة ميلين من المكان الذي غادرنا فيه السيارات لنصل إلى سفح الجبل، إلى الموقع الذي قرر فيه محمد العسيري إقامة المعسكر عند الساعة الثانية ظهراً. لم نصل نحن: فرج، وخلف، وشخصي - إلى المعسكر إلاَّ عند الساعة السادسة مساءً، بعد نصف ساعة من غروب الشمس، والذي يعتبره العرب بداية ليومهم أو تمام الساعة (١٢). لقد تبنى الأوربيون العادة المتبعة بأن يسمونها الساعة السادسة، غير أنه من المهم أن نذكر أن الساعة دائماً تعني غروب الشمس -مهما كان المعنى الحقيقي المحلي لغروب الشمس-، وهي النقطة الوحيدة الثابتة في يوم العرب. يعتبر شروق الشمس والظهر مواعيد دينية متنقلة تتباين بغروب الشمس والساعة (١٢) -أو بالأصح ساعة صفر-. قد تكون صلاة الظهر عند الساعة الخامسة (عربي) في أحد المواسم والساعة السابعة في مواسم أخرى[١]. تعتبر مدة الساعتين في الجزيرة العربية هي الفرق بين أطول يوم وأقصر يوم. رأيت أن أذكر هذه التفاصيل العامة هنا لأنها كثيراً ما يساء فهمها بواسطة الأوربيين.

فَرَضَتْ رؤيتي غير المتعمدة لنقش على ركام حجارة تحديد موعد مغادرتنا للجبل كانت النقوش على جانب الطريق، عند نقطة بدأت فيها البلاد التي كنا فيها، تنحدر ناحية فجوة تقع بين تلَّين. كان هنالك، حقيقة، عدة نقوش على الصخور في هذا الجوار، غير أن ما يستحق منها النسخ كان ثلاث مجموعات من حروف ثمودية. هبطنا أسفل السفح بعد أن أنجزنا هذه المهمة ووصلنا إلى قمم مسيل ينحدر كثيراً إلى شق عظيم على جانب الجبل، والذي أوصلنا خلف إليه عن طريق ممشى للغنم فوق الصخور الثعبانية (سرينتين) الخضراء، التي كان يصعب تسلقها في بعض الحالات.

(١) هذا التوقيت الذي يذكر فيلبي كان يستخدم عند معظم الناس إلى عهد قريب، ثم تحولت جميع قطاعات الدولة، وكذلك عامة الناس إلى استخدام التوقيت السائد بين الناس اليوم. (ابن جريس).

كان صعودنا قد تجاوز (١٠٠٠) قدم وكانت القمة -حسب المقياس اللأسلكي- أكثر من (٦٠٠٠) قدم (٦٠٧٠؟) فوق سطح البحر. تقع القمة تماماً في موازاة مع وادي العرين - يعني- جنوب شرقي وشمال غربي، يكون الجزء الشمالي مرتفع صعب مسطح القمة الصعب، والذي تتناثر فوقه كتل كبيرة من بازلت، مستديرة أو مفلقة، وينتهي في الشمال بصخرة شديدة الانحدار تنحدر إلى ساحة واسعة من كتل فلزية صخرية. يحتل هذا الجزء من القمة حوالي ثلثي المساحة. يشتمل الباقي على سلسلة ذات ظهر عريض، خشن، تنحدر خطوة خطوة إلى المضيق عند طرفه الجنوبي، وينفصل عن القسم الرئيس ممر عميق يجري إلى أسفل، تجاه الشرق. تنهض سنيبلة، التي تطل على النهاية الجنوبية لسنبلة لتكوِّن المضيق، من عند المضيق نفسه مع ميل منحدر إلى نقطة مركزية تهبط من عندها أكثر تجاه الجنوب.

ينحدر سهل الحزم، إلى الشرق من هذين الحارسين المهيبين، ويكون في مبدئه حجرياً وعارياً، غير أنه يبدأ تدريجياً في تكوين الطمي على سطحه وتنمو عليه شرائط من شجيرات وأعشاب، ثم ينحدر بلطف إلى الجانب الأيسر لوادي تثليث. أمكننا رؤية بعض القصور التي تقع شيئاً ما ناحية الجنوب الشرقي، في وحول الوادي، وهي تتبع القرية الصغيرة الحمضة وعند نهايتها الجنوبية أشجار نخيل. تقع آبار الأمواه في اتجاه أعلى الوادي ومعلمة بتلال دية ضور النقعة في الوادي نفسه الذي يجري فوق سهل واسع أبيض (جيري) يسمى العمق ويشاهد فيما يليهم. وتقع ناحية الشرق من موقعنا وعبر مجرى تثليث مساحة كبيرة لمجموعة كبيرة من صخور متراكمة وسلاسل جبلية مدعمة بالشريط الطويل المعتدل لسلسلة جبل العشة إلى البعيد. ويقع جنوباً، خلف سهل العمق الجزء الأعلى من

وادي العرين كل من سلسلة جبال سمبك والهضبة والسود وهي متطابقة جزئياً بعضها فوق بعض، بينما انتشرت ناحية الشمال الشبكة العظيمة لنظامي تلال طبب وقنا، وسلاسل أخرى بالكاد ترى من ورائهما.

يمكننا رؤية مسيل قرا في هذا التكوين المعقد، وهو ينساب من عند الفاصل، الذي من ناحيته كان مدخلنا إليه، في منحنى خفيف ليتصل بوادي العرين في مجراه عبر الجبال على بعد ميلين فقط، كما أمكننا رؤية امتدادين لوادي العرين نفسه، حين خروجه من المضيق ناحية الشمال الغربي، وقبل خروجه من التلال بقليل، وهو يدخل السهل تجاه شمال الشمال الغربي. كما كانت أجزاء من وادي طريب في مجال الرؤيا في المضيق الواقع بين قنا وطبب ناحية الشمال الغربي، كما أمكننا رؤية بروز من سلسلة تبب الذي عن طريقه يدخل السهل، بينما إلى البعيد، ناحية الشمال، تقف السلسلة العالية لخشيم الذيب على الجانب البعيد من مجرى الثفو الذي يحمل سيل وادي المسيرق إلى السهل. هكذا اجتمعت النهايات الطرفية لثلاثة مجارٍ مهمة، بدأت من عند نقاط متباعدة في طريقها لتتصل بتثليث، أمام أعيننا في إطار مسافة ضيقة لا تزيد عن عشرة أميال، أثناء بحثها لطريقها إلى الخارج حيث السهل، مثلها مثل العديد من النهايات السائبة. تفيد معلوماتي أن هذه المجاري الثلاثة ستتحد فيما يلي التلال لتتصل في نهاية الأمر بتثليث في مجرى واحد يبعد عنا مسافة (٢٠) ميلاً أو أكثر ناحية شمال الشمال الغربي.

تقع إلى ناحية الشمال الغربي، وإلى البعيد من المعقد التلي المباشر لهذه الأودية، سلسلة جبال حسير حاجبة من ورائها سلسلة جبال بني مبنه، غير مرئية

خلفه. وقفت شضبة وهي تل بارز بأذنين بارزتين، إلى جهة اليمين من التل السابق وربما قريباً من نقطة التقاء المجاري الثلاثة مع تثليث. كانت التلال المألوفة حول واحة طريب واضحة أيضاً، بينما وقفت سلسلة جبال الكلاب المنخفضة بعيداً في السهل الصحراوي تجاه الشمال الشرقي.

كانت النقاط البارزة لسهل الحزم والتي تقع مباشرة أسفل موقعنا هي تل زعبل، مظلل في مقابل السهل الأبيض الرملي من خلف الوادي، ويظهر من أعلى معسكرنا على المضيق أسفلنا مع سلسلة جبال الحجف الممتدة من عنده غرباً متعامدة مع مجرى تثليث، وكتلتا الصفا وبنى مريمر الجرانيتيتان، والقمتان المخروطتان لضيران الخشب. سرنا عبر الخلفية العريضة لسنبلة، بعد أن رأينا كل هذه الأشياء، لنصل إلى رأس مسيل يفصل جزءها الجنوبي، والذي واصلنا السير فيه فوق قمته الصعبة الضيقة نسبياً إلى نهاية أرضه الرأسية، والتي زحفنا فوق جرفها المنحدر ونحن نرى ضوء معسكرنا يضعف تدريجياً مباشرة تحتنا.

كان العشاء جاهزاً، وقررت أن أنام مبكراً ولفترة أطول من المعتاد، وأدرت مؤشر الراديو عند الساعة التاسعة والنصف لأستمع إلى إذاعة القدس حول موضوع كسوف الشمس صباح الغد، والذي أعلنته أثناء حديثنا حول نار المعسكر، والذي نتج عنه تأثير أعظم من الكسوف نفسه، وهذا ما كان مثبطاً لي. كان الكسوف في خطوط العرض الجنوبية هذه، شأناً جزئياً، ولن يكون الكسوف، في أي وقت بأكثر من حجب سدس سطح الشمس، كما كانت هنالك سحب، وربما لم ينتبه رفاقي إلى حقيقة الكسوف إن لم أخطرهم به مسبقاً، وعلى أي حال، فإن بعضهم كان مهتما بما فيه الكفاية، ليحضر إلى حيث التلسكوب المركب في مزواتي

ليروا الظاهرة وهم مرتاحون. كان خلف هو الأكثر اهتماماً من بينهم كلهم، ولكن لسبب شخصي، إذ إن أكثر ما أثَّر فيه هو معرفتي المسبقة بحدث غير متوقع كهذا وليس الحدث نفسه. أخبرني في ثقة، فيما بعد، بأن زوجته الجميلة، وذكر اسمها لي «مقبولة »كان يسكنها روح شرير (جن) واقترح عليَّ إن كنت أعرف دواء لعلتها. غير أنه كان عليَّ أن أثبط آماله.

لاحظت زوجاً من طيور الشاكور بين الصخور بالقرب من معسكرنا حينما كنا نتأهب للمغادرة. لم أتحصل على عينة منه غير أنني أدركت أنه الحجل الشائع في التلال المنخفضة وفي سهول الجزيرة العربية. كان هو الأول من نوعه الذي أراه في هذه الرحلة. كان ارتفاعنا هنا حوالي (٤٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، وهو تقريباً أقصى حدود الارتفاع لمدى هذا الطائر والذي -إلى درجة ما- يتداخل مع مدى طيران الحجل الذي اكتشفته أنا من قبل، والذي لم أجده مطلقاً عند ارتفاعات أقل من (٤٠٠٠) قدم وقد تمتد إلى (٩٠٠٠) قدم وربما إلى أعلى من ذلك، إذا كان هنالك موقع بهذا الارتفاع، في السلسلة الغربية.

بدأنا السفر عبر سهل حزم حوالي الساعة الثامنة صباحاً، عابرين شعيب زعبل في الحال، وهو ينحدر من سلسلة سمبك مباشرة لوادي تثليث. خرجنا من الطريق بعد مسافة ستة أميال من بداية الانطلاقة لزيارة إحدى قمم صفا، التي وجدنا بجوارها عدداً من النسوة (من قحطان) يرعين أغنامهن. كان هنالك العديد من الأحواض والجرف في هذه الكتلة الجرانيتية وكلها ممتلئة بالماء، وفي وفرة، خاصة في شق ضيق عميق. يصعب صعود قمة هذه الكتلة، واكتفينا بالتقاط المنظر من عند مسطبة عند سفحها. غير أن السمة الوحيدة التي لم نكن نألفها من قبل

كانت مجموعة صغيرة من النخيل تسمى رغوان على بعد ميل واحد، في مجرى تثليث تجاه الشمال الشرقي من موقعنا، كما توجد أشجار نخيل الحمضة إلى الجنوب الشرقي من موقعنا، وهي ليست بالبعيدة.

واصلنا رحلتنا بعد هذا التحويل وسرعان ما عبرنا مجرى شعيب مربع الذي يجري من سلسلة جبل نخرة إلى الوادي عند رغوان، وكان مميزاً بشريط طويل من أشجار الطلح الشبيهة بالمظلة التي يوجد فيها الكثير من أعشاش الطيور. كان من بين الطيور التي تحصلت عليها: أبو الحناء الأسود، و"البلاكستارتت" وله فرخان صغيران، والشادي. كان المجرى هنا عميقاً جداً وصعب العبور، غير أننا سرعان ما وصلنا إلى نهايته مع اتجاه النهر إلى نخيل حمضة، وعسكرنا في مزرعة جذابة على مسافة (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة من عند حافة مجرى تثليث.

لقد سبق لي أن عبرت وادي تثليث من موقع أسفل كثيراً من هذا (حوالي (٥٠) ميلاً) في عام ١٩٣٢م أثناء سفري بالجمال من وادي الدواسر إلى بيشة، غير أن هذه هي أولى واحاته التي أقوم بزيارتها، أو قل حقيقة، يقوم بها أي أوربي. تناولنا غداءً ممتازاً من رز ولحم ضأن، وبعدها خلدت إلى الراحة والإغفاءة المعهودة، وكانت طويلة، تحت ظل النخيل الرشيق. وأخذت حماماً في المساء، هو الأول لي منذ أيام أبها.

غطينا مسافة (٥٨) ميلاً -باستثناء رحلة الصبيخة- من عند مشروفة، وحوالي (٨٠) ميلاً من عند مفترق نجران - أبها، وكان ارتفاعنا هنا حوالي (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحر. كانت الحمضة واحة صغيرة بائسة ذات نخيل منتشر يمتص، دون مساعدة الإنسان، حاجته من الماء من المياه السطحية للمجرى عند هذه

النقطة. لا توجد آبار، فقط فيضات (مفرد فيضة)، تحفر إلى عمق (٣) أو (٤) أقدام في الرمال حسب الطلب. يمكن للماء هنا أن يصبح راكداً ومالحاً في فترات الجفاف، غير أنه في هذا الوقت كان جيداً، نتيجة للسيول، التي كان آخرها قبل ستة أسابيع من زيارتي. وجدنا فيضة بالقرب من معسكرنا أمدتنا بكل ما نحتاج إليه من ماء، وكذلك البدو الذين كانوا في المنطقة مع أغنامهم وماعزهم.

كانت هنالك (٤) أو (٥) قصور مبعثرة -أحدها منظري جداً يقف على قمة هضبة على الجانب الأيمن للوادي- غير أنها كلها كانت قصوراً غير مأهوله ومدمرة كما لا يوجد في الحمضة سكان مقيمون.

جذب وصولنا بعضا من الناس الذين يبدو عليهم البؤس أقبلوا علينا من عند خيامهم الصغيرة المبعثرة حول منخفض مربع. كانوا جمعاً بائساً من بشرية متآكلة، ذوي معرفة قليلة أو ليس لديلم اهتمام بأي شيء خارج هذا الامتداد الضئيل للصحراء والوادي اللذين كانا وطناً لهم. كانوا بالطبع، قحطانيين من آل مسفر تحت فخذ آل مسعود التابع لمجموعة الجحادل وبعد ممانعة شديدة وافقوا على إمدادنا بدليل للمرحلة التالية من رحلتنا، حيث إن خلف قد وصل إلى نهاية حبل معرفته، والتي كانت على كل حال، مفيدة جداً لي في حدود إمكانياته. كان ثمن التيس الذي صنعنا منه وجبة الغداء، والآخر الذي كان منه العشاء مبلغ ريالين فقط لكل رأس، كما أمدونا باللبن، كان هذا هو كل ما أمدنا به الأهالي، ولعله من النادر أن هؤلاء القوم قد انغمسوا ذات يوم في رفاهية تناول اللحوم. كان اللبن والتمر الذي يتحصلون عليه من إنتاج نخيلهم هو وجبتهم الرئيسة، وكان النسوة اللاتي حُمْن حول معسكرنا مرهقات وهزيلات. يبدو أن الشدائد قد أزالت كل جاذبية فيهن[1].

(١) كان الجوع وقلة ذات اليد من سمات العصر الذي زار فيه فيلبي هذه البلاد، في منتصف القرن الهجري الماضي. (ابن جريس).

ينحدر وادي تثليث من فوق الواحة، مخترقاً طريقه عبر ممر ضيق رائع جداً، يبلغ عرضه حوالي (٣٠) ياردة، مع نتوءات وتعرجات من حين لآخر، بين جلاميد الصخور التي يصل ارتفاعها إلى (٣٠) أو (٤٠) قدماً.

قمت بقيادة سيارتي إلى مسافة ميل واحد عبر بطن هذا الممر الرملي حتى وصلت إلى حاجز صخري كان المجرى، فيما يليه، صعباً وممتلئاً بالبرك المائية التي تخلفت من السيول. ينبعج هذا الممر عند نهايته السفلى على الوادي في اتساع وتحيط به الصخور الجلاميد، في اتجاه الشرق -اتجاه أعلى الوادي- والغرب، يبدو أن الممر قد ازدوج بظهور ممر آخر أقل رهبة، مع بروز لسان صخري يقع بين الاثنين كأنه جزيرة.

توجد أرض كبيرة فوق الممر، مملوءة بالطمي، وهي رديئة، ويشق الوادي طريقه عبرها في يسر فوق مجرى عميق ليصل وينحت طريقه عبر الحاجز الصخري، غير أنه بدا لي كأنما مجرى السيول، قد طوّق الحاجز على أحد جانبيه أو على كليهما من نقطة ملاحظتي من على هضبة مجاورة. ويبدو غريباً أن الوادي قد اختار الشريط الأكثر مقاومة. تسمى الأرض الطينية فوق الممر باسم الجمد ويبدو، من قطاعات رأيتها لها، أن عمقها يصل إلى (٣٠) قدماً، وقد ترسبت على الحاجز إلى مسافة بعيدة بسيول القرون المتتالية.

كان من أكبر السيول ذلك الذي حدث في صيف عام ١٩١٧م، يعرف في تاريخ العرب بـ «الليلة» والذي وصلت مياهه بالفعل إلى وادي الدواسر. أخبرني أهل مشروفة أن السيل لم يأتِ جهتهم، وعلمت الآن من خلف وآخرين أن المنطقة التي جادت بالسحاب الممطر والتي تسببت في السيل وحركته قد اشتملت على الجبال في الشريط الشمالي والشريط الجنوبي عبر سنبلة.

اندفعت مياه أمطار عنيفة، يصحبها الرعد والبرق وإعصار رهيب، فوق هذا الريف، وانصبت مياه الأمطار عبر كل مجرى صغر أو كبر إلى وادي تثليث، الذي اندفعت على امتداده، جارفة كل شيء أمامها في نهر واسع إلى حجلة المختمية، ثم إلى وادي الدواسر. كان سهل العمق هو الحدود الجنوبية للعاصفة، وتأثرت به قليلاً الأجزاء السفلى من العرين - من عند المضيق شرقاً- وطريب -من عند الصبيخة وشرقاً-. لم يرد إلى علمي أنها وصلت إلى الشمال إلى مجرى الثفو وأسفل مجرى المسيرق، إلا أنها قد وصلت إلى قنًّا وطبب لأنهما داخل مدى السنبلة وسمبك إلى الجنوب. كانت المساحة صغيرة نسبياً غير أن حجم الماء الذي انصب فوقها تلك الليلة كان عظيماً. فُقدت العديد من الأرواح البشرية في السيل ونفقت أعداد كبيرة من الضأن، والجمال، وحيوانات أخرى. يقال إنه حتى نبات الخروع الموجود اليوم في وادي الدواسر، والذي لم يكن معروفاً في المنطقة من قبل، قد نما من بذور جاء بها ذلك السيل العظيم[١].

يقال إن الكهيف وهي القرية التالية أسفل الوادي[٢]، تقع على بعد (١٥) ميلاً إلى الشمال من رغوان، ويعلِّم موقعها تل عشيرة على جانب الوادي الأيمن. يقدر أن جاش تقع على بعد (٨) أو (٩) أميال داخل وادي طريب. قضيت، ومعي فرج، ساعة أو ساعتين قبل حلول المغرب في ظلال مربعة والجوار نلحظ

(١) يذكر لنا بعض الرواة عن وقوع عدد من السيول العظيمة في جنوبي البلاد السعودية، خلال القرن الرابع عشر الهجري، أدت إلى دمار وخراب الشيء الكثير من الزروع والمنازل وأحياناً البشر والمواشي. (ابن جريس).

(٢) الكهيف: ــ هي المركز الرئيس لبلدة تثليث اليوم. (ابن جريس).

تنوعاً غير عادي للطيور، إلى جانب مشاهدتنا لأرنب بري والورل. اشتملت الطيور على سيسي (A.H) والحمام الأخضر. واليمام طويل الذيل (O.C.capensis) ويمام النخيل والثرثار والشادي ونوعين من السبد وقنبره الصحراء. كان صيداً جيداً لمكان غير مشجع كهذا. قمت بفحص الممر الضيق في الصباح الذي بلغ طوله كاملاً حوالي ميلين حتى نهايته العليا، حيث يجري الوادي في سهل عريض مشجر بين ظور النقعة على اليسار وتلال الحميراء والجعيفره على اليمين.

قمنا بوداع مضيفينا البؤساء وقد تجاوزت الساعة الثامنة صباحاً بقليل وواصلنا رحلتنا على امتداد جانب الوادي الأيسر لتثليث ودخلنا إلى سهل متموج ذي شجر قادنا بعد مسيرة ميلين إلى الجزء الأعلى من وادي مربع الذي ما زال كثيف الشجر ويقع بين سلسلتي جبال الحجف والجرشعة وعلى بعد مسافة قصيرة إلى الأمام، حيث يمتد بين جرشة على اليمين وكوم الطمي لجمد على الجانب الآخر، يعرف الوادي باسم العجاجان.

مازلنا نصعد هذا الوادي إلى مسافة نصف الميل، غير أننا كنا نسير فوق أرض طينية، كانت صخورها العالية تحجب عنا المنظر، سرعان ما خرجنا منه إلى سهل ذي شجر لنصل إلى مجرى تثليث مرة أخرى على بعد خمسة أميال فوق الحمضة. يسمى الوادي محلياً هنا العطف (المجرى)، في الأعلى، وعليه غطاء نباتي غني من شجيرات وأشجار، معظمها أراك وطلح. عبرنا المجرى لنتبع جانبه الأيمن في أرض رملية بحته، وقد امَّحت من فوقها كل آثار دروب السيارات. لم ير دليلنا الجديد، مطيع، عربة طيلة حياته، وكنا مضطرين للتوقف مرتين لنسمح

له أن يتقيأ في هدوء. تكون أنوف هؤلاء الذين يسكنون الصحراء شديدة الحساسية لأي رائحة دخيلة. يسدون أنوفهم عادة حينما يزورون مدينة، بحشوات من صوف، كما نفعل بآذاننا لمواجهة صوت إطلاق الرصاص، غير أن بخار البنزين في السيارة كان له التأثير نفسه. كالذي ينتاب العديد منا حين نستنشق ما تطلقه باخرة نهرية.

انحرفنا تدريجياً عن خط وادي تثليث، مخترقين السهل الرملي الواسع الذي يفصله عن رافده، شعيب لسان، الذي وصلناه بعد خمسة أميال. يتفرع الوادي من أسفل إلى فرعين منفصلين، أحدهما بالاسم نفسه -ويسمى الآخر شعيب لهو- من عند منبعه في كتلة لهو على مسافة تجاه الجنوب الشرقي من الحمضة، يتحد الفرعان مع تثليث عند النقطة التي كنا قد عبرناها بالقرب من الحافة الجنوبية لجمد، والتي قد كانت ذات يوم بطناً لوادٍ ثم امتلأت بالطمي منذ القدم جلبه سيل عظيم غاب في ظلام النسيان. رأينا في هذا السهل غزالاً، غير أننا تركناه في سلام ذلك لأن الرمال لا تسمح بالمطاردة. وصلنا إلى خط صرف آخر يسمى ميري، إلى ما وراء لهو، ويهبط إلى تثليث من عند تلال قعوان إلى الجنوب من لهو وفوق شعيب يحمل اسم الأخير. كانت هذه البلاد موحشة، غير منتظمة من كل الجهات، ولما كان مطيع يشعر بالرغبة في التقيؤ للمرة الثالثة، ولما كانت السيارات الأخرى لا تزال بعيدة من ورائنا، لعلها تواجه بعض المصاعب، طلبت أن نتوقف وأن ننقل الدليل إلى السرير لفترة يرتاح بعد تناوله حبة إسبرين لعلاج صداعه تحت شجرة لطيفة.

كان اتجاهنا حتى هذه النقطة هو ناحية الشمال الشرقي، غير أن طريق نجران يتجه الآن شرقاً عبر وادي المدبغ، بينما يجري منه فرع آخر، تستخدمه السيارات

كثيراً، ناحية الغرب تجاه الأمواه، خاصة لمن يرغب في الحصول على ماء أو لقضاء ليلة لطيفة في معسكر.

لقد قطعنا (٢٤,٥) ميلاً ونصف الميل الحمضة وأود أن أرى ما يمكن مشاهدته من وادي تثليث. لذا، فقد قررت أن نعسكر عند الأمواه لقضاء الليلة، وعليه فقد تحولنا بعيداً عن الطريق الرئيس متجهين ناحية الغرب بعد أن وصلتنا السيارات الأخرى التابعة لنا، وأعلن مطيع أنه بدأ يشعر بالتحسن. كان سهل الطمي الواسع الذي ينحدر تدريجياً من سلسلة جبال لهو قعوان نحو تثليث ويسمى العمق وكنت قد رأيته من حمضة يلمع في بياض من بعيد. قادنا الطريق داخل منحنى يبلغ طوله خمسة أميال إلى قمة عنق ومن عندها استدرنا قليلاً ناحية الشمال الغربي لنصل إلى تثليث على مسافة ميلين. كان المجرى هنا رملياً وعرضه حوالي (١٠٠) ياردة، ينساب عبر ممر ذي جدران جرانيتية عالية، قمنا بقيادة سياراتنا بينها إلى مسافة قليلة وصلنا بعدها إلى آبار الأمواه لنستقر هناك لإقامة معسكر في حمى جلاميد ضخمة جرانيتية على جانب الوادي الأيسر.

كان موقع المسقى فوق المضيق الجرانيتي، الذي كان بلا شك يخدم في حجز المياه مما يؤدي إلى تغلغلها في تربة بطن الوادي وإلى داخل ثقوب مائية كبيرة محفورة من الرمل وضحلة العمق. ولقد وجدناها جافة ذلك لأن قطيعاً كبيراً من الماعز كان يستقي هنا عند الصباح وقد استنزفها كلها، غير أن الماء بدأ من جديد واضحاً وهو ينز مرة أخرى ليملأ الحفر من جديد خلال وقت وجيز. كان هنالك سرب كبير من الزنابير يحتسي سائلاً من بين الرمال الرطبة، ومتزاحماً لأجل الحصول على ما ينعشه. كان قطيع المعز من أملاك جحادل قحطان، وقد زارنا

اثنان من رجالها بعد وصولنا بقليل، كانا عظيمين متيني البناء، طويلين نحيلين، وعليهما علامات سامية، ويتحركان في قفزات وحيوية غير مألوفة بين العرب. اشترينا منهما عنزة واحدة مقابل ريالين كما اشترينا بعضاً من اللبن، وكان هذا كل ما يمكنهما بيعه لنا، غير أن أحدهما واسمه عبدالله من فخذ آل مسفر، رضي أن يرافقنا كدليل إضافي مقابل مكافأة إلى حيث أعلى نقطة قمت باختيارها لتكون الأكثر فائدة لملاحظاتي. لاحظت قبل ذهابنا إلى هناك، في صخور جرانيتية خلف معسكرنا نقشين كبيرين وبشكل واضح فقمت بنسخهما فوراً. كانا بالكتابة الثمودية العادية. تضمنت الطيور في هذا المكان الأنواع العادية للغداف (الغراب) وبعض السيسي وقطاة واحدة.

ترتفع الأمواه بحوالي (٤٠٠) قدم أعلى من حمضة، أو (٤٩٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان الموقع الذي اخترته لإجراء مسوحاتي هو قمة كتلة جرانيتية، يكوّن جانبها، من عند البئر إلى الموقع الذي دخلنا من عنده إلى الوادي، الجانب الجداري الأيمن للممر. وكان ارتفاعها حوالي (٢٠٠) قدم فوق الوادي. لمحنا من الجانب الشرقي سهل عمق العظيم، ممتداً بيننا وبين سلسلة جبال لهو وقعوان وجنوباً من خط ظور النقعة وديمة إلى السلاسل البعيدة لكتادة، وشدر، وحجر وعداد مكوِّنة السفوح الجبلية لسراة وكلها تجاه ظهران، إلى الجنوب من موقعنا. ينحدر السهل تجاه الغرب ناحية المجرى وكان قسمه الأعلى (الشرقي) رملياً طينياً، ويتحلل تجاه الغرب إلى أرض لينة تغذيها السيول مع كثافة من شجيرات خفيفة تتطور بجوار الوادي إلى أرض غنية بالأشجار ويصعب قيادة السيارات فيها، بسبب وجود كتل العشب ونحوه وفي الفراغات، مثل الأراك والسمر والطرفاء، يميز هذا الجانب المشجر من السهل محلياً عن بقية السهل باسم الحضرة.

يمكننا الآن رؤية الأمـواه، وهي تشتـمل على ثلاثة ثقوب مـائية وليس ثقـباً واحداً، أحدها يسمى بيبوت الذي عسكرنا عنده، من قبل، والثاني قليل على بعد نصف ميل تجاه أعلى الوادي والثالث بقعاء على مسافة ربع ميل إلى أعلى.

أمكننا مـتابعة المجـرى، فيـما وراء الأخيـر، وهو يمر على الجانـب القريب للهضـبة مزدوجة القمـة التي تسمى جبلين على بعـد ستة أميال إلى أعـلى، كما يوجد أيضاً على الجانب القريب من سنـام، تل مدهش حاد الأنف على بعد ميلين من الأمـواه. اختـفى الوادي بعـد هذه العلامـات، في ارتبـاك لتلال منخـفضـة وسلاسل جـبلية، ولم يعد يرى. يمـكن رؤية الوادي في اتجاه مجـرى الوادي تجاه الحمـضة وهو يعـبر هضـبة نجد بن سـالم السوداء، ثم يدور إلى اليـمين إلى تل الحميراء ومنه يلف إلى الخلف جهة اليسار، ماراً بظور النقعة. تقع الأرض الرأسية للهو عند نهـاية سلسلتهـا، تجاه الشمـال الشرقي، بينمـا برزت إلى الشرق وعلى طريقنا إلى نجران، كتلة جبلية واضحة تسمى المدبغ، تمتد من عندها سلسلة طويلة في اتجاه مائل نـاحية الجانب الأيمن للوادي، على مـسافة معتـبرة إلى الجنوب من موقعنا. تسمى هذه السلـسلة الجبلية كفة، وإلى البعيـد ومن خلفها، تجري سلسلة أخرى تسمى رخ.

تفصل سلسلة كـفة أرض قحطان عن أرض يام (اتحاد نجـران)، حتى المدبغ، حيث تجـري الحدود بعـده شرقاً إلى واحـة العين، على مسيـرة يوم -كمـا قيل- بالجـمال من الأمـواه، لتقل (٣٠) مـيلاً. إن العين قـرية مهـمة ذات آبار عـديدة ومزارع نخيل مزدهرة، يمـلكها جحادل قحطان التي كان رؤسـاؤها الأساسيون في هذا الوقت هم خليل بن قرملة وخالد بن حشر وعذار بن مسفر بن سعدان. تكون

مجرى تثليث أيضاً، الحدود الشرقية لقحطان عبر المنطقة الجنوبية لكفة، إلى المركز الإداري للحرجة.

هكذا كان المنظر الذي رأيناه من تلك القمة. لقد اختفت بعض العلامات الأرضية القديمة مثل سنبلة، وبزق فجر عالم جديد علينا، أرض قبائل يام التي كانت ذات هيبة. أقيم احتفال، بالمناسبة، برؤية الهلال الجديد (٢٠ يونيو) وكنتُ تلك الليلة أسلِّي عن دليلينا القحطانيين، مطيع -الذي تعافى الآن من مرضه- وعبدالله إلى جلسة مع الراديو من القدس، متضمنة خلاصة لكلمة السيد اورمسبي جور (Mr.armsby Gore) عن متاعب الفلسطينيين. كانت هذه المشكلة العظيمة مدار التخمين حتى في هذه الزاوية البعيدة غير المحنكة بشؤون العالم[١].

كانت الدرجة الدنيا للحرارة في الليل (٦٦) درجة فهرنهايت، وعند الساعة الرابعة والنصف صباحاً كنا نتتبع أثر طريقنا - عائدين إلى المفترق لنواصل تقدمنا عبر وادي المدبغ الذي يبلغ عرضه ميلاً واحداً، وهو يرتفع تدريجياً بين الأنفين الجرانيتيين، الداكنين لهو وسلسلة كفة، ثم يضيق تدريجياً إلى قاسم يفصله عن شعيب الرهوه، وهو وادٍ صعب إلى حد ما ومملوء بالشجيرات الخفيضة والجنبات، التي تبعناها بين سلاسل صخرية مشابهة إلى إقليم قبائل يام. تقع قمة المدبغ إلى يسار الطريق تقريباً تجاه الغرب وليست ببعيدة، بينما تطالعنا إلى الأمام تلال جديدة، كانت من بينها نقطة مشاف وهضبة حيحان وكانا بارزين. هرب سرب

(١) إن قضية فلسطين قضية المسلمين عامة، فلا غرابة إذا كان سكان هذه البلاد التي زارها فيلبي في بوادي قحطان منشغلين بما يحدث على أرض فلسطين في منتصف القرن الهجري الماضي، وهذه القضية أيضاً لا زالت شغل المسلمين الشاغل حتى اليوم، وسوف تبقى حتى ينقذ الله المسجد الأقصى (بإذن الله تعالى) من أيدي اليهود الصهاينة. (ابن جريس).

صغير من طيوري (الحجل) منزعجاً لحركتنا، أثناء اقترابنا إلى القمة، وقد تمكنت من إدخال أحدها إلى الحقيبة بعد جهد مطاردة محدودة. كان الفاصل على ارتفاع (٥٥٠٠) قدم فوق سطح البحر. أثبت وادي الرهوه أنه -بعرضه الذي يبلغ نصف الميل- وادٍ طويل ومتعب. وانتشر على مسافة سبعة أميال من عند القاسم، إلى انبعاج عريض من رمال صعبة مملوءة بأشجار الغضا، نموذجاً لما تكون عليه الصحارى. ابتعد الشعيب عنا بعد مسيرة ميلين، ناحية اليمين، بينما دخلنا عبر السهل الذي يدعى الجحر وهو مملوء بالعديد من أشجار الطلح وشجيرات خفيفة على سطحه الرملي. وكان محاطاً تماماً بتلال وسلاسل جبلية تدعمها من أمامنا الحجارة الرملية الرهيبة وهي سلسلة علم التي تنتهي في أرض رأسية عظيمة. يمتد هذا السهل، وعرضه ثلاثة أميال ويصب مجرى الجحر في وسطه، والرهوة، الآن على مسافة ناحية اليمين من موقعنا، تجاه الشرق إلى مسافة عشرة أميال إلى هضبة صغيرة، حيث توقفنا لنلقي نظرة على الوسط المحيط من حولنا.

إن ما كنا نعتقده من بُعْد على أنه قمة جرانيتية، اتضح لدهشتي، أنه بروز لحجر رملي. إننا إذاً عند الحدود الجيولوجية بين الكتل البركانية لغرب الجزيرة العربية والقُرارات الترسبية المميزة لصحراء نجد. تقع سلسلة العشّة إلى الشرق من لهو وتتواصل بواسطة سلسلة علم التي هي أيضاً حجر رملي. يمكن القول لذلك، أنه في هذه المنطقة تكوِّن كل من لهو، ومدبق، وكفة السور الخارجي للأراضي البركانية. وجدت على قمة الهضبة التي نقف عليها نقشاً ثمودياً وقد قمت بنسخه. شمخت الهضبة إلى ارتفاع (١٠٠) قدم، كان جزؤها الأسفل عبارة عن قاعدة من جرانيت يحمل من فوقه البناء الفوقي لحجر رملي متآكل جداً.

واصلنا سيرنا على امتداد شعيب الحجر ذي الشجيرات، غير أننا قد أُغرينا بالتوقف لتناول وجبة الغداء تحت ظل لطيف لأشجار سمر باسقة. كانت أوامري، التي أمليتها ونحن في الأمواه، بأنه من الواجب إعداد وجبة الغداء لليوم التالي أثناء الليل، لنؤمن لأنفسنا انطلاقه مبكرة -كما حدث بالفعل- قد أُهملت لسوء الحظ ولم يُعمل بها، ولم يكن هنالك طعام جاهز. أزعجني هذا كثيراً وأفصحت عن انزعاجي بأسلوب مؤكد. لقد فقدت أعصابي حقيقة، ولعنت الجميع. ثم أمرت بمواصلة الرحلة بلا طعام لأجعلهم يدفعون ثمن عصيانهم، بمنعهم من أن يتناولوا أي نوع من الأكلات الخفيفة. كانت هنالك علامات للتمرد وكانت هنالك كلمات جارحة، غير أنني أصررت على موقفي.

لم يكن للدليل مطيع يداً في هذا الإهمال غير أنه طلب الإذن بأن يعود إلى موطنه الحمضة وفوراً ومن هذا المكان، وطالما قد وصل إلى نهاية بلاده فإنه سيعود لوحده وعلى رجليه، لم أعطه فقط الإذن بالذهاب، ولكنني ناولته ستة ريالات -ضعف المبلغ المتفق عليه مقابل خدماته- إلى جانب بعض من المؤنة الكافية من التمر والدقيق والماء، وإضافة إلى ذلك، أهديته نصف المعزة التي لم تطبخ والتي كان من المؤمل أن نتغدى بها. كان هناك تمرد مكشوف بين رفاقي في مقابل هذا الجزء الأخير من عدم التوقير لشخصي من جانبهم، غير أنني لعنتهم كخادمين لي ولمحت مطيعاً وهو يبدأ مسرته الطويلة محملاً بغنائم الفضيلة.

كان الفريق الذي واجه الرحلة الجنوبية فريقاً مخيباً للآمال، فريقاً لا يزال جائعاً وبلا أمل له باللحوم في وجبة عشاء. غير أنني كنت جائعاً مثلهم، وقد قررت أن ألقنهم درساً لأول وآخر مرة بأن يتجنبوا مغبة عصيان لأوامر مستقبلية

من هذا النوع. كانوا يدركـون بأنني ربما أواصل السفر لمسافـة (١٠٠) ميل، ذلك لأن الوقت كان لا يزال مبكراً - قليلاً بعد الساعة التـاسعة والنصف صباحاً. كان لدي رأي حول هذا الموضوع أيضاً. فقد قـررت أن نعسكر لقضاء الليلة عند سفح أرض علم الرأسية، لكي نقضي النهار التالي مسـتكشفين مرتفعات الجبال. وصلنا إلى علم بعـد انطلاقة بالعـربات في خفـة ورشاقة فـوق وادي رملي ثابت لمسـافة (١٠) أميال، لقد استغرب رفاقي -بلا شك- عند سـماعهم أنهم سيقضون النهار كله تحت شمس حـارقة وبعيداً عن أي مـصدر للماء وليس لديهم لحوم. تركـتهم يتحدثون وذهبت وحيداً لمهاجمة الجبال فقد كان سلوك فرج أيضاً مخزياً.

لقد اقتربت من هذه الجروف العظيمـة في خوف وبارتعاش وقد أخبرني فرج -وربما كان يتشكك في رغبتي أن أتسلق هذه الجبال، وذلك قبل حادثة الغداء- أنه لا يوجد طريق يقـود إلى أعلى الجبال. رفضت بالـطبع هذه الإفادة، بعلمي بكره العرب لأي جهد لا ضرورة له. بدت الصـخور من قريب وهي شديدة الإنحدار، وتعجبت في قرارة نفسي إن كنت فقط أستطيع الصـعود دون معرفة محلية. ويبلغ الأمـر أسوأه، أنـني خرجت وليـس معي زاد، ولم نتـناول أي طعام منـذ عشـاء الأمس، ولم آخذ معي حتى الماء.

كان عليَّ أن أواجه وقتـاً عصيباً، وكان النجاح ضـرورياً لأحافظ على هيبتي في مواجهة الـتذمر الذي تركته يغلي من ورائي. كان سـفح الجرف -ولمئات قليلة من الأقدام- مغطى بتركمـات للفلز الصخري لجلاميد مبعـثرة في فوضى عظيمة، ولم تكن هنالك صـعوبة لصـعود ذلك الجـانب إلى حيث انـتصب جـدار الجرف عمـودياً أمامي. لم يكن -على كل حال- الانـحدار أو الملوسة التي تشـاهد قطعاً

متآكلة للدرجة التي جعلتها سلسلة من أرفف عميقة منقرة بالكهوف أو ناثرة فوقها قطعاً من صخور، ساعدتني أحياناً في صعوبة، لتحسس مواطئ خطواتي، الواحدة بعد الأخرى، متحركاً أفقياً فوق الأرفف لأجد الوصول الأسهل للرف التالي. كان عملاً مضنياً، وكانت الشمس حارقة، وأحسست بالارتياح حينما رأيت -وأنا في منتصف الطريق- فرجاً يقبل ناحية الجرف ومعه قربة ماء صغيرة فوق كتفه. لم أخطط، على أي حال لانتظاره، وحقيقة فهو لم يتقدم إلى أكثر من ثلث الطريق إلى أعلى. كانت المهمة كثيرة المشقة عليه، ولما كان الماء في حوزته، فقد لجأ إلى أحد الكهوف اتقاء للشمس منتظراً نزولي.

وصلت في هذه الأثناء إلى قمة الجرف على ارتفاع حوالي (٧٠٠) قدم فوق السهل، ومتحركاً في يسر على القمة الواسعة إلى أقصى ارتفاعها والذي أوضحه جهاز قياس الارتفاع اللأسلكي عند (٨٥٠) قدماً فوق سطح السهل -أكثر من (٥٠٠٠) قدم بقليل فوق سطح البحر-. استغرق هذا مدة ساعة ونصف الساعة لكي أصل إلى القمة، حيث وجدت كتلة كبيرة من الصخر وقد حفرت بكهوف رحيبة، لجأت إلى أحدها اتقاءً للشمس، إلى جانب أنه مجال لرؤية جيدة للبلاد المحيطة. كنت جائعاً جداً، وشديد الظمأ والتصق لساني بأعلى فمي، غير أنني لم أتمكن من العودة إلى المعسكر إلاَّ في وقت متأخر بعد الظهر. أزعجني في هذه الأثناء غياب دليل يوضح لي مسميات السمات الجديدة التي ظهرت حتى الآن، غير أنني سجلت مواقعها وتحصلت على الأسماء لمعظمها في وقت لاحق.

تمتد سلسلة جبال علم ناحية الشمال الغربي والجنوب الشرقي في خط متعرج توضحه أراضيه الرأسية البارزة. يوجه الجانب المنحدر من الجرف جهة الجنوب،

بينما بدأت السلسلة تنحدر قليلاً تجاه الشمال والشرق، ناحية الصحراء. كوَّنتْ سلسلتان جبليتان منفصلتان -في ذلك الاتجاه- خط الأفق وكلاهما فيما يبدو قسم من نظام يسمى السواده. كانت سلسلة الكوكب القصيرة السوداء، والقريبة منا، مظللة مقابل الشريط الأصفر للنفود الواسعة. تقع نفود أخرى صغيرة، وتدعى نفوذ المسمة بين الطرف الجنوبي الشرقي لعلم والبلاد الصخرية الحجرية الرملية إلى ما يليها، والتي إذا عبرها سنكون سالكين طريق السفر. ينسد هذا الحاجز الرملي في سهل جهر إلى الشرق، ويمكنني رؤية شريط شعيب الجحر الضحل واضحاً في مواجهته. أستطع كذلك رؤية السمات المختلفة من جهة الغرب إلى الشمال الغربي، التي اخترقها طريقنا خلال الصباح وهي حلمة هفاف ورزة، وصخرة صغيرة ذات نقوش، ورزة أخرى في أرض القهرة الحجرية الرملية وحيحان. يمكنني رؤية سلسلة أخرى ولكن دون وضوح، بعيداً تجاه الجنوب، لعلها الحشرج ويقف عليها تل مربع مسطح القمة.

يبدو أن سلسلة علم كلها من حجارة رملية، ولم ألحظ أي علامة للجرانيت عند قاعدتها. وعليه فإن الصخرة الصغيرة التي لحظتها في وقت مبكر بدأت وكأنها تعلِّم الخط الفعلي للتحول إلى النظام الترسبي للصحراء العربية. شاهدت طائر الأبلق طويل الذيل وأنا مستلق في كهفي، ولم أتمكن من إصابته، مما أثار اشمئزازي، غير أنني في الصباح الباكر لحظته وأصبته وأدخلته الحقيبة، أو قد يكون هذا طائراً غيره لكنه من النوع نفسه كان بجوار المعسكر، على أنني لاحظت هذا النوع عدة مرات في البلاد الجنوبية. وهو نوع نادر. كما وجدت في هذا الجوار عصفور الدغناش وكان اسمه العلمي«بلاكستارت».

استطعت أن أعثر على طريق أكثر سهولة أثناء هبوطي من القمة، مقارنة بطريق الصعود، ووصلت إلى منتصف المسافة. سرني وجود فرج وهو يتعثر بين الصخور محاولاً اعتراض طريقي ومعه ما ينعش من شراب. كنت على وشك أن أصل المعسكر حينما وصل إليَّ فرج عارضاً عليَّ الماء الذي رفضت تناوله، غير أنني كنت مسروراً بالشراب الذي تناولته، عند وصولي إلى رفاقي، بعد غياب دام ست ساعات.

لا يزال الإحساس بالتمرد قائماً ولذلك، أعددت هجوماً من ابتكاري وذلك بأن أوجه اللوم، بألفاظ جارحة إلى فرج لفشله في مواجهة الشمس وصعود الجبل. كان -لدهشتي- يتميز غضباً لنقدي له، غير أن سعد، الذي اتهمه بالضحك، ربما على غير وجه حق، أثناء محاضرتي هذه عن قصور أداء المجموعة، كان يحمل ضغينة ولم يشارك في المساعدة في أعمال المزولة، وقد كان يمسك المشعل الكهربائي لإضاءة الأجزاء المختلفة، أو يسلخ جلد طيوري. غير أنه تراجع عن ذلك حينما أعلنت له، بأنه إذا رفض أداء عمله، فَسَيُتْرك في الصحراء هنا ليسير ماشياً إلى الحمضة كما فعل مطيع من قبل. يكفي هذا التوجه لأن يخيف ساكن المدن العربي العادي، فجاء بسرعة خاضعاً. كنت في هذه الأثناء بحاجة إلى دليل، غير أننا لمحنا نار مخيم لبعض البدو بعد المغرب، على بعد، وأرسلت كلاً من محمد العسيري وفرج للعثور على دليل، وإذا أمكن الحصول، على بعض اللحم للعشاء. كانا مستعدين لذلك، غير أنهما عادا بخفي حنين. فقد أفزع قدوم سيارتهما مشعلي النار فاختفوا ولم ترد استجابة منهم في الظلام للتأكيد لهم بأنهما يكنان المودة والصداقة.

كان الطقس، بصفة عامة، بارداً وفي لطف أثناء النهار، عدا فترة تسلقي للجرف، وقبل دخول الليل، استرخيت على موسيقى حفلة جلبرت وسليفان مذاعة من القدس. نسيت عند الصباح كل مشاكل الأمس، وتحركنا إلى الأمام. فريق متحد مرة أخرى، نحو المرحلة الثانية من رحلتنا.

اتجه مسارنا ناحية الجنوب الشرقي مسافة أربعة أميال حتى الطرف الأقصى، الجنوبي الشرقي، لعلم، على سفح الجرف العظيم الذي يقع فوق سهل رملي خشن، وكان غطاؤه النباتي المتوافر -برغم جفافه- قد جذب عدداً من الغزلان -معظمها من نوع العفري- لتتناول وجبة الصباح.

تركناها ومراعيها وأسرعنا، متوقفين فقط عند الرأس الأرضي الأخير لعلم، لتفقد البلاد التي تقع أمامنا، يسمى هذا الرأس الأرضي عند البدو باسم خشم الضميان (أرض العطش) في مقابل خشم الرويان الذي عسكرنا تحته. وكانت صخوره مملوءة بأحواض صخرية طبيعية مملوءة بالماء الذي تجمع بعد الأمطار، بينما كانت الواجهة المنحدرة ليست بالثراء نفسه. يقع من هنا، متراس علم الخارجي، أو الشرقي، في اتجاه الشمال الغربي، إلى الخلف، مواجهاً الصحراء العربية الجنوبية الضخمة. تقع قرية عين قحطان، في مكان ما في الطبقات الخارجية ومحتضنة في وادٍ بعيد كأبعد ما يمكن أن يكون، وكأنها قاعدة أمامية للإنسانية في مواجهة كفاحها الشرس مع الطبيعة. تقع السلسلة الجبلية الصغيرة لكوكب، هناك في الصحراء نفسها، إلى الشرق من موقعنا، وهي محاطة بالرمال، بينما انتشرت إلى البعيد أكثر، وفي اتجاه الشمال الشرقي، السلاسل العظيمة لكل من السوادة وحضا.

يمتد من أمامنا لسان عريض للصحراء العظيمة غرباً داخل سهل الجحر وتفصله عن القرا البلاد الحجرية الرملية التي تقع في ممر سيرنا المتوقع، قليلاً ناحية الجنوب الشرقي إلى جانب عدد من السمات البارزة منها: الأرض الرأسية الجميلة لأثيبه، قمة الصماء المسطحة وسلسلة لب السعدة. تسمى هذه القطعة الرملية نفود المسمة، وتبطن حافتها القريبة بالسلسلة حمة المنخفضة، بينما يمتد جانبها البعيد بذيل طويل لساحل رملي حجري يسمى سهي. تندمج البلاد الحجرية الرملية تجاه الجنوب والجنوب الغربي، على بعد، مع سلسلة ذات سمات أكثر ارتفاعاً (لعلها بركانية) مكوِّنة وتراً ممزقاً من جهة الجنوب الغربي، وإلى الجنوب - يحتوي على لجم، وأبلم، وعبد، وأم أصبع، والحشرج وغيرها. ويقف في وسط أرض المسمة الرملية تل صغير ولكنه بارز بلونه الداكن.

يتجه مسارنا الآن ناحية الشرق على شعيب الجحر ، والذي يسمى عند هذه النقطة السليل. ويسمى السهل إلى ما يلي حافة علم باسم المسيرّ وهي أرض عارية إلى عمق ستة أميال، يتحول بعدها إلى كثافة شجيرية، خفيضة وبعض جنبات على امتداد ذيل المصرف، حيث يتم حجز مياه السيول الموسمية -بلا شك- بواسطة الرمال المتقدمة على الدوام. تتبعنا طريقنا بسهولة ومسافة خمسة أميال كان ممحواً في بعض أجزائه مخترقين هذه المساحة من الأرض ذات الغطاء النباتي الجيد والذي توافرت فيه الغزلان بأعداد كبيرة، إلى أن خرجنا مرة أخرى إلى أرض عارية. يجاهد مجرى السليل الضحل، من عند هذا الموقع، ليشق طريقه عبر الرمال ليتلاشى نهائياً، كما قيل، في سلسلة الكوكب غير أننا لا نحتاج لمتابعته لأبعد من هذا الموقع إذ يتجه الطريق عند هذه النقطة، وفجأة، تجاه الجنوب الشرقي، ناحية الطرف الشرقي لسلسلة قرا إلى ما وراء رمال المسمة.

لم تواجهنا متاعب في عبور مجرى سليل الخيطي الممزق، وبدأنا بعده مباشرة نبحث عن منطقة ذات أحواض سبخات مبعثرة (ملح)، تمثل مياهاً راكدة قديمة من سيول السليل. دخلنا، فيما يلي هذه، إلى رمال المسمة الحقيقية، بعد أن سرنا مسافة (١٩) ميلاً من المعسكر وحوالي (١٤) ميلاً من خشم ضميان الذي -بالمناسبة- يُعد حدوداً معترفاً بها بين قحطان (إلى الشمال) وبين يام. أصبحنا الآن ولعمق بعض الأميال داخل أرض يام والتي سنمكث فيها لعدد من الأسابيع، بعد أن تتبعنا تخوم قاسم الرهوة إلى خشم ضميان[١].

كان سطح النفود متيناً بما فيه الكفاية، لولا أنه يكوّن بعضاً من المرتفعات والمنخفضات بسبب الأجمات الكبيرة للعشب الجاف. تبادلت مساحات مكسوة بهذا العشب مع أخرى من رمل خشن متماسك ولقد قدنا سياراتنا بمرح فوق الأمواج المتدحرجة للرمال، في اتجاه الجنوب. كان عرض النفود في موقع تقاطعنا لها حوالي ثمانية أميال تنتهي في مساحة بطبقة من الرمال، ساقطة كالمئزر عند الجزء المتداعي الأسفل من جروف قرا نفسها، والتي عبرها إلى داخل الطريق حيث يوجد وادٍ متعرج في اتجاه الجنوب الشرقي. كشف لنا هذا المجرى الملتف والمتعرج المجرى والمسمى نجد سهي، الذي يتباين عرضه عن تغيير غير متوقع لمناظر أكثر دهشة لنا وأكثر ترحيباً بنا مما سبقه.

ما كنا بالكاد ندخل ممره ذا الجدران العالية التي تكون قمته حتى قفز غزال كان مستلقياً في استرخاء في أحد الكهوف ومخترقاً في سرعة مجموعتنا، إلى

(١) من يتجول في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية لبلاد قحطان يجدها أحياناً متداخلة في بعض المواطن مع قبائل يام النجرانية، وبالتالي فإن الغريب عن هذه النواحي يصعب عليه تمييز ملاك المواقع، ولا يمكن معرفة المعلومات السليمة إلاّ من العارفين بها وبأهلها. (ابن جريس).

سلامة الرمال قبل أن يتهيأ أي منا بالسلاح. ما كنا نخرج من مرارة الهزيمة بفقدنا هذه الوجبة المعتبرة حتى لفت انتباهي شيء هزني مراراً وتكراراً. كان وادي سهي، أو قل مدخل الممر على الأقل، إذ أنه كان كل ما أستطيع رؤيته تلك اللحظة، وكأنه صالة عرض حقيقية لرسوم فنان بدائي، وقد هجرت منذ زمن بعيد وتركت لسحالي وثعالب الصحراء، غير أنها لا تزال سليمة، بليغة بإنسانيات عصور طواها النسيان، التي لم يتحرج فنانوها من استخدام هذه الأحواض العظيمة للصخور الرملية الحجرية الملساء لتزيينها بما بدا أنه طريق سريع هام للتجارة أو الغزو، ولربما كان الرسم لطريق التوابل القديم نفسه مع مناظر لحياة تلك الأيام[١].

يشغل أول جانب من هذا العرض، حوالي ميل واحد من المدخل إلى الوادي، كل مساحة اللوحة الضخمة المكوَّنة من حجارة رملية تقع بالقرب من كهف كبير على الجانب الأيمن من الممر، وتبدو أنها تتكوَّن من قطعة عمل واحدة كبيرة، وثماني قطع أخريات بمستوى أقل طموحاً تملأ الفراغات من حولها ومن تحتها. تمثل الصورة المركزية نعامة ذات أبعاد واسعة بدائية ولكن قوية، هي في الوسط، مع مجموعات لحيوانات أخرى وبشر، على نظام أدنى على الجانبين، إلى جانب بعض النقوش المختصرة -ربما كانت أسماء شخصية أو شعارات جنائزية-. وبعض الحروف الثمودية منفردة مبعثرة. كان أكثر ما يستحق التقدير من بين هذه المواد، هو صورة لرجل، يبدو متحضراً، عاري الرأس، ورافعاً يديه والأصابع

(١) وفي أثناء تجوالي في بلاد قحطان ونجران خلال صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م)، شاهدنا العديد من النقوش والرسوم المنتشرة على كثير من الصخور والوهاد والجبال، وكثير من هذه النقوش ذات فائدة علمية عظيمة. وإنني أنادي أقسام الآثار، والهئية العليا للسياحة في المملكة أن تُولي هذه الأجزاء بعض الاهتمام فُترسل بعض المختصين لدراسة مثل هذه النقوش والآثار القيمة. (ابن جريس).

ممتدة. واكتمل المشهد بصور لثور، وبعض الجمال، وحمار وحصان وكائنات أخرى يصعب تعريفها، إلى جانب رسم خطي لرجل يحمل درعاً بإحدى يديه، وملوحاً بسيف بالأخرى. وكلها كانت محاولات بدائية جداً. أبرزت ثلاث لوحات ثانوية أخرى إلى يمين اللوحة المركزية، ومما جاء فيها، -متضمناً بعض الكتابة-، نعامتان -في حيوية تامة-، وبقرة يسهل التعرف عليها، ورجل وامرأة مع وجود الأعضاء التناسلية، وشيء بدا وكأنه على الأقل القنطور[1]، ورسوم أخرى غير معروفة. كان يوجد إلى يسار هذا المشهد لوحة لرجال يمتطون الخيول، مع كلب سلوقي -ظناً-، وإلى يسار هذه اللوحة، توجد لوحتان تحتويان على خربشة غير ذات أهمية، واضح أنها يقصد بها مجموعة جمال. وقد امتلأ أخيراً، الفراغ عند أسفل وجه الصخرة وعلى الجانبين بنقشين ثموديين من (١٢) حرفاً و (٢٤) حرفاً على التوالي، وكان يرافق الثاني منها رسم للضبع وشيء بدا وكأنما قصد به منزلاً.

واصلنا رحلتنا إلى أسفل الوادي بعد أن تم نقل محتويات هذا العمل الفني العظيم، إلى دفاتري بأقصى ما لديّ من مقدرة بسيطة، غير أننا توقفنا مرة أخرى على بعد (٤٠٠) أو (٥٠٠) ياردة لفحص مجموعة أخرى من الأشكال. كان هذا العرض الفني الثاني من قسمين متجاورين، الأول منهما (إلى اليسار) يشتمل على نقش واضح من (٣٢) حرفاً فوق رسم بدائي لجملٍ يجري غير أنه مليء بالحياة. وكان الرسم الذي إلى اليمين عبارة عن مشروع طموح أكثر يشتمل على ما يلي:

---

(١) حيوان خرافي مكون من قسمين الجزء السفلي يمثل جسم حصان والجزء العلوي جسم إنسان. (ابن جريس).

(١) تصوير لرجل دين ذي عمـامة على رأسه يبدو كأنه يلقي خطبـة مدعمة بإشارات قوية.

(٢) رسم ممتاز للمارية (للبقر الوحشي).

(٣) رسم حي جـداً لإنسـان أغلب الظن أنه لامـرأة في حالة إثـارة عاليـة، فالأيدي مرفوعة والأرجل منفرجة.

(٤) رسم لا بأس به لجـمل وهو يخبب مع شـكل غريب لا مـعنى له يقف على ظهره -لعله إضافة حديثة-.

(٥) رسم بدائي جداً لثور و(كما يبدو) نعامتين.

(٦) رسم خطي لكلب سلوقي.

(٧) نقشان موجزان ثمـوديان (إجمالي ١٣ حرفاً) وأخيراً كتـابة عربية حديثة (لا إله إلا الله، محـمد رسول الله) مـن الواضح أنها إضافـة من أحد المسافرين حديثاً.

وجدت على مـسافة (٢٠٠) ياردة فـقط صخرة يحـمل وجههـا العديد من النقوش (أسـماء أو نذور) تشتـمل على (١٠٧) أحرف في مـجموعـها، وبالطبع كانت ثمـودية، إلى جانب رسـومات أخرى، مـحاها عامل الطـقس أو قد تكون أزيلت عن عمد، تصوير لجمال وحيـوانات أخرى. كانت النقوش، لشدة الغرابة، واضحة ومحددة. اتسع الوادي بعد هذا الموقع بقليل إلى عرض يقارب ميلاً واحداً حيث يتـتبع مجرى سـهي على جانب الوادي الأيسر، تاركـاً الطريق على الجانب الآخـر من الوادي، فوق أرض كـثيـرة المهـاوي والمطبات، ذات كـتل الأعشـاب الكثيرة، غير أن هذه لم تعق تقدمنا.

عبر طريقنا وعلى مسافة تقدر بستة أميال من نقطة دخولنا إلى الوادي، مجرى سيل شعيب شيشع، الذي يحمل تصريف السلاسل على يميننا، ليتصل بسهي، الذي يمر آخر الأمر، عبر سلاسل منخفضة من حجارة رملية على جانب الوادي الأيسر لينفذ في مواجهة رمال النفود على حافة الصحراء العظيمة. كان اتجاه مسارنا الآن ناحية الجنوب وسرعان ما عبرنا مجرى شعيب الصماء المتجه ناحية الشرق، والذي انحدر من تل بارز مسطح القمة، بالاسم نفسه، إلى اليمين من موقعنا، وإلى البعيد وجدنا على مسافة ميلين من عند هذا الموقع مجموعة ضخمة من رسوم على الصخور موزعة على العديد من البروزات الحجرية الرملية المبعثرة على سلسلة منخفضة على الجانب الأيمن للوادي الذي اتسع الآن وضحل. كان من المستحيل نسخ كل هذه الرسوم، بما تبقى لدي من الوقت، غير أنني اخترت من بينها عشرة كانت هي الأحسن من بين المجموعة، وعالجت وجهًا آخر للفن القديم مقارنة بالعينات التي تم وصفها، من أعلى الوادي، وتفصلها هذه المجموعة من آخر تلك المجموعة، مسافة تقدر بأحد عشر ميلاً -حوالي (١٣,٥) ميلاً ونصف الميل من عند رأس الوادي-. كانت هذه أيضاً في أراضٍ مكشوفة وقد رسمت على جدران هضبات منقرة بالكهوف والتي -بلا شك- ساعدت على حماية الفنانين أثناء راحة ما بعد الظهر، أو ربما كانت مساكن لمجتمع شبه ساكن الكهوف. كان العنصر البشري هنا أكثر وضوحاً في أعمالهم مقارنة بموضوع الحيوان السائد هناك، أعلى الوادي الذي محوره منظر صيد وحرب ومشاهد زراعية من حين لآخر.

كانت أحسن الرسوم، حقيقة، تلك التي تمثل مجموعة مختارة بعناية لأربع نخلات ولا شيء آخر يصرف نظر المشاهد من جمال تجمعها، بينما كررت صورة

أخرى موضوع مزارع النخيل في درجة اكتمال أقل إلى جوار نقوش عديدة ثمودية من (٦٤) حرفاً، يحيط بـها رسم بدائي جداً لثعلب، ولرجل يمتطي فرساً كـسيحاً ولأحد المشاة الذي يبدو وكأنه يلوِّح بمنديل -أو ربما رافعاً سيفاً عريضاً-.

رافق رسم آخر بدائي جـداً لرجل يمشي وفارس يحمل حـربة، نقشاً يشـتمل على (٢٢) حرفاً. وبدا رسـم آخر وكأنه لوح وعليه محـاولة غير ناجحـة لتركيب شكل لرجل ممتطٍ ماسكاً حربة عند مسـتوى الكتف على رسم أصلي وحيوي لثور ذي قرون ضخمة مقوسة. كـانت هنالك مجموعة أخرى لرسم بدائي جداً وبالكاد يمكن تفسـيره، لفـرسان مصطفـين، وهم يحملون الحراب، بلا شك فـهم يمثلون مجمـوعة مغيرة منطلقة لأداء عـملها، برغم أن اثنين من الخيول كانا مـتجهين في الاتجـاه المعاكس للخـيول الأربعـة الأخرى. قـد يكون القصـد من صورة أخـرى وبوضوح، هو التـعبيـر عن منظر حربي أو ربما منظر الطراد، إذ أنه يشـتمل على أربعة فرسان يعدون في اتجاهات مخـتلفة، يلوحون بالسيوف، إلى جانب شخص يحمل حربـة مستوية، وحصـان بلا راكب، وأخيراً صورة لرجل وهو يسـير على قدميه، كـان نصفه محجوبـاً بواسطة حيوان غير محـدد، وذيله منتصب قد يكون هذا الأخيـر قصد به رسمـاً لفارس آخر إلاَّ أنه كـان فاشلاً من وجـهة نظر الرسم المنظوري.

احتوى رسم آخر -في بدائية شـديدة- على ثلاثة فرسان، اثنين منهم أيديهما مرفوعـة وبلا سلاح والثالث معـه حربة وهو مُتهيّء لطعن حيـوان غريب الشكل وقد يكون قـصد به الحمار البـري. كانت هنالك صورة أخرى لمعـركة بين رجلين يحمـلان الحراب يهـاجمان ثالثـاً يقع بينهمـا، وتوضح الصورة آخر جـاء ليلحق المشاجرة، وحصاناً بلا راكب، وفـوق خط الأفق لهذه الرسوم كان هنالك ما يمثل

حقيقة النمر أو ربما نمر مخطط، حكماً بالشرائط الواضحة على الجسد. توضح صورة أخرى شكلاً بالكاد يعرف أنه لرجل يحمل درعاً بإحدى يديه، وقطعة من سيف مرفوع في الأخرى، ويبدو وكأنه يصرخ متحدياً اثنين من الأعداء، أحدهما منبطح على الأرض مسدداً نحوه بما يبدو وكأنه بندقية، غير أنه قد يكون حربة، أو قوساً طويلاً، بينما انحنى الآخر فوق الأخير كأنما هو على وشك إطلاق سهم عليه من قوس واضح مشدود على مرمى نقطة الانطلاق. يمكن أن يكون الرجل المنبطح، بعد كل هذا، هو ضحية لهجوم الاثنين الآخرين. كانت الصورة الأخيرة لهذه المجموعة - وبالمناسبة واحدة من الأحسن- توضح وعلاً -واقعياً إلى حد بعيد- وهو على وشك الانهيار وقد أطلقت عليه حربة طويلة بواسطة فارس تم تصويره من الخلف. أعترف بأن الميزة الفنية لهذه الرسوم ليست كبيرة جداً في أي مستوى مطلق ولكن لا يوجد أي مجال للخطأ في القوة الحقيقية التي دفعت إلى تصويرها.

لمحنا ولأول مرة سلسلة طويل المراد من هذا الموقع. معلَّماً بالتقريب المكان الذي ستنتهي إليه الرحلة هذا المساء وهو المسقى الصحراوي في الحمى. وقد وصلنا إلى طرفه الغربي بعد مسافة خمسة أميال أخرى لتواجهنا مرة أخرى، كتلة من نقوش ثمودية تتخللها رسوم مختلفة من نوعية متدنية. كان عددها كبيراً واكتفيت بنسخ (١٤) رسماً منها فقط، هي تلك التي تستحق النسخ، كان العديد منها لرسم بدائي، وكانت في حالات كثيرة متآكلة بفعل عوامل التعرية، وهي لحيوانات مستأنسة -ثيران، وجمال-، وبشر، ومن أميز هذه الأخيرة صورة لرجل وهو يجري حاملاً قوساً في إحدى يديه وخنجراً أو جراب سيف على خصره وعند مفصل الورك. ارتكز اهتمامي لهذه المجموعة من الصخور، على النقوش،

التي بلغ عددها الأربعة عشر وقد نسختها وهي مكوَّنة من (٦٣٢) حرفاً ثمودياً. كان سفرنا، حتى هذا الموقع في اتجاه الجنوب الغربي، مسافة تبلغ ستة أميال، وكانت المسافة، من عند أولى المجموعات للرسوم الصخرية التي شاهدناها عند رأس وادي سهي، تقدر بثمانية عشر ميلاً، وقد كنت مشغولاً مدة بلغت في مجموعها حوالي ست ساعات في نقل هذه السجلات بأقصى ما أستطيع من مقدرة.

لا تزال أمامنا ستة أميال أخرى متبقية لنصل إلى آبار الحمى، ويكفيني إنجاز ما كان على عاتقي من أعمال مضنية. وقررت أن نترك ما تبقى من دراسة لأعمال القدماء إلى الغد، وعليه شققنا طريقنا بين صخور صخرية رملية سوداء تسمى ريع المباني، وتعني ممر المباني لندخل في الوادي المكشوف فيما يليها، والذي تقابلنا فيه مع مجرى شعيب سيلة قادماً من أرض قرا ومن ثم تتبعناه إلى التقائه مع شعيب الحمى في وادٍ جميل كثير الشجر في جوار الآبار، أو الينابيع، التي تكوّن هذا المشرب المهم. يعبر المجرى المتحد هذه الآبار متجهاً شرقاً إلى النفود مثله مثل كل المجاري التي اعترضتنا من عند شعيب سهي وما يليه إلى الأمام.

كانت رحلتنا متواصلة بلا انقطاع لمدة ثماني ساعات منذ أن غادرنا معسكرنا في عَلَم، وقد غطينا خلالها (٤٥) ميلاً، وكنت سعيداً بأن أستقر في معسكر مرة أخرى. كان يوماً شديد الحرارة ومرهقاً، ودهشت حين مراجعة قياس الارتفاع اللأسلكي بأننا بدلاً من أن نهبط خلال كل هذا الوقت، كنا حقيقة نصعد لارتفاع بلغ (٢٠٠) قدم فوق مستوى رأس نجد سهي. كانت المسافة بين مفرق الأمواه وحمى تقدر بـ (١٣٦,٣) كيلومتراً. بينما كانت المسافة (٣٠٣,١٥) كيلومترات

من عند مفرق أبهـا - نجران (حوالي ١٩٠ ميلاً). كان ارتفاعنا فـوق سطح البحر في هذا الموقع (٤٤٠٠) قدم، وهو ما يمكن اعتـباره الطرف الغربي للربع الخالي، ذلك لأنه لا يتوقع وجود ماء في هذا الممر إلى الشرق من الحمى[١]. يمكن أن تعد الحدود في هذه الصحراء -عديمة الماء- تتكون من تل الكوكب إلى الشمال، حيث الأحواض الصـخرية المملؤة بالمـاء بعد هطول الأمطار، ومن الحـمى نفسـها ومن الحصينية إلى الجنوب حيث الآبار الجيدة في مجرى حبونا إلى أسفل[٢].

قابلنا قطيع كبير للماعـز، ونحن نقترب من الحمى، في طريقه أسفل الوادي وكان في رعاية عـدد من النسوة، كل واحدة منهن منهمكـة في غزل الصوف أثناء حركة سيـرها في الجناح الخاص بها. كنَّ يقمن بسقي حيوانـاتهن وقد حيينا وهن في دهشة حـينما مـررنا أنا وفرج بالسـيارة بقـربهن، وكانت الشـاحنة حينهـا قد انغـرزت في الرمال في مـجرى سـيلة، وتأخرت سـيارة النقل لمسـاعدة الشـاحنة للخروج من المأزق.

وصلت أنا وفرج إلى الـينبوع، الكائن داخل دائرة مطوَّقـة بالجرف عند رأس الوادي يبلغ قطرها حـوالي (٣٠٠) ياردة، والتي تبـاعدت عـنها جـدران الحجـر

(١) يوجد ماء بالفعل في قرية الفاو ومواقع أخـرى قليلة على امتداد الجرف الغربي لطويق، التي تعد الحدود الحقيقية للربع الخالي. (المؤلف).

(٢) حبونا:ـ هو ثان واد مهم في منطقة نجران، واسمـه قديماً في كتب التراث (حَبَونن). ويأخذ هذا الوادي أعلى مسـاقط ميـاهه من السراة الواقـعة إلى الشـمال الغربي مـن بلدة نجران، وإلى الغـرب من ظهران الجنوب. أما من نـاحية الشـمال فيـقاسم تثليث الماء من حـزوم تقع جنوب سهل العـمق شرق خـميس مشيط. وسكان هذا الوادي من قبائل يام، ما عدا منابعه العليا فلوادعة وفروع من قحطان، للمزيد انظر. الحسن بن أحمد الهمداني. **صفة جزيرة العرب**. تحقيق: محـمد بن علي الأكوع (الرياض: منشوارات دار اليمامة للبحـث والترجمة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ١٦٦، ٢٥١، ٢٥٤؛ ياقوت، **معجم**، حـ٢، ص ٢١٥، عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة**، حـ٢، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ . (ابن جريس).

الرملي الرفرفية متجهة إلى الخلف، إلى مسافة ملائمة، وفي صفوف ممتلئة بالكهوف، التي تأوى الزوار الذين يصلون إلى هذا الموقع. أضافت أعداد من أشجار الطلح الجيدة النمو سحراً للمنظر، وقد استمر انتشارها ناحية أسفل الوادي في تتابع جذاب. وهناك بئر تقع عند المركز، وهي عبارة عن ينبوع يبلغ قطره حوالي عشرة أقدام وماؤه ممتاز ووافر حتى مستوى سطح التربة، حتى أن المرء يستطيع أن يلعق الماء بمجرد الانبطاح على الأرض، وأن يغرف إلى فمه أو يملأ منه بيديه قرب الماء. توجد نقرة أخرى مستديرة مماثلة تقع على مسافة قريبة وهي مملؤة بالقصب، كانت بلا شك ينبوعاً آخر وقد امتلأ بالطمي لسبب ما، وقد أهمل. كما يقع بين هذين الاثنين ينبوع آخر صغير مستدير يبلغ قطره حوالي ثلاثة أقدام وهو مبطن بالحجارة كما كان الينبوع الكبير.

شرع فرج في البحث عن النسوة الراعيات وذلك بمجرد أن وصلنا وأخذنا نتأمل هذه الصفوف من الصخور، لأجل أن يشتري منهن تيساً وبعض اللبن لوجبة العشاء. كنت من جانبي، مرهقاً بأعمال اليوم التي انصبت على نقل ونسخ النقوش تحت حرارة الشمس لذلك عمدت إلى أن أستلقي تحت ظل شجرة مضيافة طلباً لبعض الراحة. كان الوقت الثالثة عصراً، ولم أعِ إلاَّ على صوت مزعج عند الساعة السادسة والنصف مساء، وكان الظلام قد هبط، وكان مصدره هو وصول الشاحنة وسيارة النقل التي واجهت صعوبات عديدة لإخراج الشاحنة من انغرازها في الرمل.

كنت مرهقاً إلى جانب أن رصيد ساعات نومي العادي سجل عجزاً في عدد ساعات النوم، كانت أعمالي قد تم إنجازها جزئياً تحت عَلَم، غير أنني كنت نادراً

ما أستغرق في نوم عميق، وأشعر أنني أحتاج إلى براد من الشاي وبعض جرعات من لبن طازج لتنشيط أحاسيسي المخدرة لتعود إلى نمط عملها. توج العشاء هذه العملية، إلى جانب أن فرجاً -حقيقة- كان في أحسن سلوكياته طيلة اليوم، بينما ظل سعد، من بين كل مجموعتي ينمِّي شكواه المتعلقة بالأمس. غير أنه كان هنالك عامل واحد أدى إلى اضطراب الشعور العام بالراحة والرفاهية. كان المكان موبوءاً بالبعوض، والبعوض أكثر إلحاحاً في عدوانه خاصة في هذا المكان، أكثر من أي موقع آخر عبرناه على امتداد الطريق، لقد جعل البعوض ليلتنا بشعة بالأزيز، وقد كنت مسروراً بأنني قد نمت قبل أن يبدأ البعوض الهجوم سريعاً مع ظلمة الغسق، على أمل أن أظل نائماً خلال الليلة ذات السماء الملبد بالسحب، المصحوبة بالدفء اللطيف.

كان معسكر البدو على مسافة منا، في الصحراء -وبلا شك بسبب البعوض- غير أن عدداً من النسوة حضرن إلى معسكرنا مع شروق الشمس. ومعهن مئونة من اللبن. علمت فيما بعد أن هؤلاء النسوة كانت إحداهن من قطّاع الطرق المشهورين وكذلك كانت شقيقتها التي تدعى بنت البثة. كن معروفات بأنهن يكْمُنَّ للرجال في الصحراء ويسرقْن منهم جمالهم. كانت المرأة الأكبر سناً بينهن عرجاء بسبب جرح قديم أصابها في مثل هذا القتال، غير أنها تقوم بأمورها على أحسن حال[1].

(١) الجوع وفقدان الأمن هما من الأسباب الرئيسة التي جعلت بعض الأقوام في نواحي عديدة من الجزيرة العربية يقومون بقطع الطرق وسلب أموال الناس. والرجال هم في الغالب من يقومون بمثل هذه الأعمال، أما النساء فقليل من هن يقمن بهذه الممارسات، وربما الأمثلة التي ذكر فيلبي تكون من الحالات النادرة. (ابن جريس).

ذهبت إلى مجموعة الركام الحجرية لكي أطل على منظر عام للبلاد، تؤدي هذه الركامات الحجرية وظيفة أعمدة العلامات لمواقع الشرب، وتطل من فوق الهضبة الحجرية الرملية خلف موقعنا. وكما يشاهد من هنا تتكون مجموعة قرا من سلسلة تصادفية تقع تجاه الشمال والجنوب، على بعد ثلاثة أميال، ناحية الغرب مع انتفاخ رملي عند سفحها، والذي من عنده تنحدر الهضبة بلطف إلى مسافة خمسة أميال لتندمج في رمال الصحراء الشرقية. أستطيع أن أرى، بعيداً، وفي الاتجاه نفسه الشريط البني الشاحب للرمال المكوِّنة لحافة الربع الخالي وتمتد إلى الخلف، بلا سمة واضحة وإلى الأفق المليء بالغيوم.

بدا من الواضح أن هضبة قرا هذه ليست فقط قريبة جداً من خط الالتماس السطحي بين التكوين الترسبي والتكوين البركاني، بل إنها تقع فوق هذا الأخير وعلى عمق ليس بالكبير ذلك بسبب وجود بروز جرانيتي مكسر إلى جلاميد ضخمة مكورة على بعد نصف الميل أسفل الوادي من عند البئر، إلى جانب بازلت متكشف ومبعثر. تشققت الجلاميد التي تحيط بمنطقة البئر بواسطة أخاديد عديدة تمتد مسافة إلى الخلف داخل هضبة الصخور الرملية التي تحمل مياهها حيث أسفل إلى وادي الحمى. من المحتمل أن تكون كل هذه المجاري من عند الحمى وحتى الجحر -وكلاهما متضمن- في الأصل روافد لوادي حبونا، غير أنها تحت الظروف الحالية لا يمتد أي منها إلى أبعد من الرمال الخارجية للصحراء العظيمة، التي تمتص كل المياه التي يحملونها.

كان عليَّ، وأنا أتحدث في جدية أن أنهي هذا الفصل الخاص بوادي تثليث قبل أن استهل رحلتي إلى بلاد يام، غير أنني رأيت أنه من الملائم أن أتطرق إلى

الأرض الواقعة بين شعيب الجحر وبئر الحمى كهمزة اتصال انتقالية، ليس فقط بين المنطقتين القبليتين كما هما اليوم، بل بين إقليمين لحضارتين مختلفتين في الجزيرة العربية القديمة.

لقد أسسنا موقعاً لقدم في بلاد لم تكن أبداً خالية من بصمات تذكارية لفن أو نقش لحضارة اندثرت، كانت تختلف كثيراً عن حياة البدو وشبه البدو في عصرنا هذا الحديث، بينما رأينا القليل فيما يخص السجلات القديمة، في كل البلاد الواقعة إلى الشمال، والتي لا يمكن تفسيرها بأنها من فعل مسافرين عابرين، قادمين من الجنوب في مناسباتهم المشروعة للتجارة أو للحج، إلى المسجد الحرام في بكّة[١]. لاحظت في الصخور الحجرية الرملية من حول البئر عدداً من الخربشات والرسوم ذات الأهمية الثانوية مقارنة مع تلك التي قابلتنا على امتداد الطريق. كانت إحدى هذه الرسوم خطية مصغرة لنعامة نصف محاطة بالرمز المألوف لدلو البئر الذي يستخدم دائماً في هذه الأنحاء ليدل على وجود الماء. ترك كل من محمد النشمي، شقيق حاكم نجران[٢]، وتابعه حسين بن رويشد اسميهما إلى جانب الرسم وتركا كذلك تاريخ زيارتهما، عام ١٣٥٤ هجري أو ١٩٣٥ ميلادي. كان يوجد أيضاً رسم بسيط لجمل وآخر لفارس نشط يشد لجام فرسه إلى الخلف، كأنما كان على نهاية سباق. لقد اكتشفت أطول وأهم نقش خلال كل

(١) بكّة: اسم من أسماء مكة المكرمة (ابن جريس).

(٢) أمير نجران أثناء زيارة فيلبي جنوبي البلاد السعودية، هو:ـ إبراهيم بن عبد الرحمن النشمي (١٣١٣ ـ ١٣٩٨هـ)، وكان من الرجال الذين يُعوّل عليهم وتسند إليهم المهمات، تولى عدة إمارات في عهد الملك عبدالعزيز في أمور كثيرة، كما غير الملك اسمه من إبراهيم الوشمي، نسبة إلى بلادة الوشم، إلى إبراهيم النشمي. للمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع عبدالعزيز**، ص ١٨ ـ ٤٩ . (ابن جريس).

رحلاتي وذلك بعد أن واصلنا سيرنا صباح الغد وعلى بعد ميل واحد من الوادي. كان النقش، جزئياً، قد تأثر بعوامل التعرية وبصورة سيئة، غير أن ما تبقى منه قد احتوى على (٤٠٠) حرف وعندي أن السجل الأصلي لا بد وأن يكون محتوياً على ما يزيد عن نصف هذا العدد، إضافة إلى ما كان على طرف الصخرة الأيسر مونوقرام (علامة ترمز لشخص ما) ضخم شيئاً ما مثل شمعة الزينة، وللأسف فإن هذا النقش السبئي لا يزال ينتظر التفسير من جانب الخبراء ولا أستطيع أن أدلي بشيء عن مغزاه[١]. كانت هنالك مجموعة أخرى من نقوش إلى جواره، وقد تمكنت من نسخ أربعة منها وتحتوي كلها على (٧٢) حرفاً، يبدو أنها كانت تمثل برجاً مستطيلاً ذا باب مقوَّس[٢].

لم تكن دنيا الطيور في الحمة مثيرة للاهتمام، كان معظمها من النوع الصحراوي المكون من سيسي، وقنبرة الصحراء، -طار أحدها من عند البئر عند وصولنا لأول مرة، وبلا شك كان يشرب منه-، والأبلق العربي، و"بلاكستارت"، غير أن البلابل وأبو الحناء الأسود واليمام كانت ذات غلبة أكثر وكذلك كان حمام الصخور. سمعت عن الحمى في عام ١٩١٨م، وأنا في وادي الدواسر، بأنها موقع سقي مهم في الطريق الصحراوي الطويل بين ذلك المكان

---

(١) يبدو أن تاريخه كان عام (٦٣٣) للتقويم السبئي أو (٥١٨م). تم نشره في دورية (Le Museon) عام ١٩٥١ بواسطة البروفسور رايكمانز. (المؤلف).

(٢) زار فيلبي نجران مرة ثانية عام (١٣٧٠هـ / ١٩٥١م)، ومعه بعض المتخصصين في النقوش والآثار القديمة، أمثال:ــ الأستاذ / كونزاك ريكمان، أستاذ اللغات السامية في جامعة لوفان ببلجيكا، والسيدان فيليب ليبنز، وجاك ريكمان. وقد عملوا العديد من الدراسات، أشار فيلبي ليبنز إلى بعضها في كتابه: ــ **رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية**. ترجمة ومطبوعات دار الملك عبدالعزيز (الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م). (ابن جريس).

ونجران، وقد اهتـززت فرحاً أن أتمكن من رؤية هذا المكان بأم عيني لتأكـيد صدق من حدثني عنه في تلك الأيام، والتي انقضت منذ زمن بعيد، إنه لمن سحر السفر في الصـحـراء مراجـعـة المعلومـات المنقـولة عن الآخـرين لتـشبع نهـم فضـول الاستكشاف.